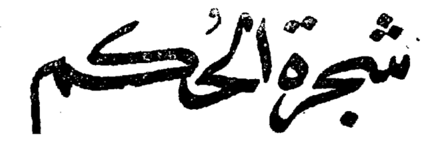
توفيق الحكيم

شجرة الحكم

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز ت ٩١٨٦٧١
المطبعة النموذجية
٦ سكة الشابورى بالحلمية الجديدة ت ٩١٩٣٧٧



توفيق الحكيم



شجرة الحكم

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز ت ٩١٨٦٧١
المطبعة النموذجية
٦ سكة الشابوري بالحلمية الجديدة ت ٩١٩٣٧٧

كتب للمؤلف

نشرت باللغة العربية

كتب للمؤلف نشرت باللغة العربية

١ — محمد ١٩٣٦
٢ — شهرزاد ١٩٣٤
٣ — عودة الروح ١٩٣٣
٤ — أهل الكهف ١٩٣٣
٥ — تحت شمس الفكر ١٩٣٨
٦ — أشعب ١٩٣٨
٧ — عهد الشيطان ١٩٣٨
٨ — براكسا أو مشكلة الحكم ١٩٣٩
٩ — راقصة المعبد ١٩٣٩
١٠ — نشيد الإنشاد ١٩٤٠
١١ — حمار الحكيم ١٩٤٠
١٢ — سلطان الظلام ١٩٤١
١٣ — من البرج العاجي ١٩٤١
١٤ — تحت المصباح الأخضر ١٩٤٢
١٥ — تأملات في السياسة ١٩٥٤
١٦ — بجماليون ١٩٤٢
١٧ — الأيدي الناعمة ١٩٥٤
١٨ — لعبة الموت ١٩٥٧
١٩ — حماري قال لي ١٩٣٨
٢٠ — أشواك السلام ١٩٥٧
٢١ — رحلة إلى الغد ١٩٥٧
٢٢ — رحلة الربيع والخريف ١٩٦٤
٢٣ — يوميات نائب في الأرياف ١٩٣٧
٢٤ — عصفور من الشرق ١٩٣٨
٢٥ — سليمان الحكيم ١٩٤٣
٢٦ — زهرة العمر ١٩٤٣
٢٧ — الرباط المقدس ١٩٤٤
٢٨ — شجرة الحكم ١٩٤٥
٢٩ — الملك أوديب ١٩٤٩
٣٠ — مسرح المجتمع (٢١ مسرحية) ١٩٥٠
٣١ — فن الأدب ١٩٥٢
٣٢ — عدالة وفن ١٩٥٣
٣٣ — أرني الله ١٩٥٣
٣٤ — عصا الحكيم ١٩٥٤
٣٥ — التعادلية ١٩٥٥
٣٦ — إيزيس ١٩٥٥
٣٧ — الصفقة ١٩٥٦
٣٨ — المسرح المنوع (٢٠ مسرحية) ١٩٥٦
٣٩ — السلطان الحائر ١٩٦٠
٤٠ — يا طالع الشجرة ١٩٦٢
٤١ — الطعام لكل فم ١٩٦٣
٤٢ — سجن العمر ١٩٦٤
٤٣ — شمس النهار ١٩٦٥
٤٤ — مصير صرصار ١٩٦٦
٤٥ — الورطة ١٩٦٦
٤٦ — ليلة الزفاف ١٩٦٦
٤٧ — قالبنا المسرحي ١٩٦٧
٤٨ — مجلس العدل ١٩٧٢

كتب للمؤلف

نشرت في لغة أجنبية

كتب للمؤلف نشرت فى لغة أجنبية

شهر زاد

ترجم ونشر فى باريس عام ١٩٣٦ بمقدمة لجورج ليكونت عضو الأكاديمية الفرنسية فى دار نشر (نوفيل ليدسيون لاتين) وترجم إلى الانجليزية ونشرت مختارات منه فى دار النشر (بيلوت) بلندن ثم فى دار النشر (كراون) بنيويورك فى عام ١٩٤٥

عودة الروح

ترجم ونشر بالروسية فى ليننجراد عام ١٩٣٥ وبالفرنسية فى باريس عام ١٩٣٧ فى دار «فاسكيل» للنشر ، وبالانجليزية ، نشرت مختارات منه فى لندن عام ١٩٤٢

يوميات نائب فى الأرياف

ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٣٩ (طبعة أولى) وفى عام ١٩٤٢ (طبعة ثانية) وترجم ونشر بالعبرية عام ١٩٤٥ وترجم ونشر باللغة الانجليزية فى دار (هارفيل) للنشر بلندن عام ١٩٤٧ وترجم إلى الإسبانية فى مدريد عام ١٩٤٨ وترجم ونشر فى السويد عام ١٩٥٥ وترجم ونشر بالألمانية عام ١٩٦١ وبالرومانية عام ١٩٦٢ ، وبالروسية عام ١٩٦١

أهل الكهف

ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٠ بتمهيد تاريخى لجاستون فييت الأستاذ بالكوليج دى فرانس ثم ترجم إلى الايطالية بروما عام ١٩٤٥ وبميلانو عام ١٩٦٢ وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٤٦

(تابع) كتب للمؤلف نشرت فى لغة أجنبية

الكتاب	
عصفور من الشرق	ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٦ طبعة أولى . ونشر طبعة ثانية فى باريس عام ١٩٦٠ .
عدالة وفن	ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس بعنوان « مذكرات قضائى شاعر » عام ١٩٦١
بجماليون	: ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠
الملك أوديب	: » » » » » » »
سليمان الحكيم	: » » » » » » »
نهر الجنون	: » » » » » » »
عرف كيف يموت	: » » » » » » »
المخرج	: » » » » » » »
بيت النمل	: » » » » » » » / وبالإيطالية فى روما عام ١٩٦٢
الزمار	: ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠
براكسا أو مشكلة الحكم	: » » » » » » ١٩٥٤
السياسة والسلام	: » » » » » » »
الشيطان فى خطر	: » » » » » » »
بين يوم وليلة	» » » » » » » / وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٦٣
عش المبادئ	: ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٣
أريد أن أقتل	: » » » » » » »

(تابع) كتب المؤلف نشرت فى لغة أجنبية

الساحرة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٣

دقت الساعة : » » » » » » »

أنشودة الموت : » » » » » » »
وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٥٤

لو عرف الشباب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ٩٦٤

الكنز : » » » » » » »

رحلة إلى الغد : » » » » » » ١٩٦٠

الموت والحب : » » » » » » »

السلطان الحائر : » » » » » » »
وبالإيطالية فى روما عام ١٩٦١

ياطالع الشجرة : ترجم ونشر بالإنجليزية فى لندن عام ١٩٦٦ (فى دار
نشر اكسفورد يونيفرستى بريس

[الترجمات الفرنسية من دار نشر « نوفيل إديسيون لاتين » بباريس]

« فوسوس إليه الشيطان ، قال: يا آدم ...
هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى؟ ...
فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما ! . . .
« قال : اهبطوا ، بعضكم لبعض عدو ! ... »
(القرآن)

مقدمة

« شجرة الحكم » فصول نشرت فى الصحف فى سنة ١٩٣٨ م وما بعدها ، وقد أثار نشرها غضب الأحزاب جميعها ؛ وهى نتيجة لا نحمد عليها ؛ فإن الغاية المنشودة دائماً هى إرضاء الكل ... فإذا تعذر هذا الأمر فلا أقل من إرضاء البعض ... أما إثارة السخط العام فهو عمل لا يقدم عليه إلا الحمق ومن فى حكمهم ... وأنا من هؤلاء ولاشك ... فقد فاتتنى فى دنياى حتى اليوم لذة لم أذقها قط ... تلك هى لذة من يَنقد ويَرمى وظهره مسند إلى حائط حزب ... ذلك الحائط الذى يضمك ويحميك ، ويتلقى صدره الواسع عنك ومعك أكثر سهام الأخصام . . .

كنت ذلك الذى يصيب فلا يبسم له أحد ، ويصاب فلا يسعفه أحد ! . . .

نقدت عيوب « النظام البرلمانى » ، وكنت يومئذ موظفاً فى الحكومة ، فعاقبونى عقاب اللص والمختلس ، وخشُوا أن

يحاكمونى ، لئلا أحسن الدفاع وأكشف القناع ، ولم يصغوا إلى قولى الذى رددته :

« إن من حقى الكلام فى هذه الشئون . . . إن لم يكن بصفتى كاتباً فباعتبارى مواطناً ، ولكن هيهات أن يكون لى حق الكلام فى إطار ذلك النظام ، حتى وإن نعت بالديمقراطية ! ...

ذلك لأنه الطريق المفروش بالورد لكل طامع فى الوصول إلى الحكم ، بل إنه « الخميلة » الجميلة التى تُظل عشاق الحكم ، فمن ذلك المجرم الذى تحدثه نفسه أن يمسك بالمقص ليشذب تلك الخميلة ، ويزيل الزائد من أطرافها ، ويهذب الفاسد من أوراقها ، ويدع ضوء الشمس ينفذ من خلالها ، فيهتك ستر العاشقين ، ويفضح سر الطامعين ؟ ! . . .

« النظام البرلمانى فى مصر هو الأداة الصالحة لتخريج الحكام غير الصالحين » ! . . .

كان هذا مضمون رأيى الذى أذعته فى نوفمبر ١٩٣٨ م .

ولقد أنشأت فى ذلك الوقت مقالا بعنوان :

« لماذا أنتقد النظام البرلمانى ؟ . . . » هذا نصه :

« . . . فى عقيدتى أن كل مواطن يرى رأياً فيه صلاح لبلاده ويكتمه خوفاً أو جبناً أو إيثاراً لراحة النفس والبدن ؛ — إنما هو رجل مذنب فى حق بلاده وضميره ... لذلك لم أحجم عن إبداء رأيى فى النظام البرلمانى الحاضر ، باعتبارى مواطناً له حق الكلام ، وما زلت مصراً على قولى إنه فى حاجة كبرى إلى الإصلاح ، ومازلت على استعداد لتحمل المتاعب فى سبيل عرض رأيى صريحاً مجرداً أمام الجميع ! . . .

مرحباً بكل من يقارع رأيى برأى ، حتى نصل آخر الأمر إلى اقتناع النفس بما فيه خير الوطن . . . إذا لم يكن هذا هو جوهر الروح الديمقراطى فما معنى الديمقراطية إذن ؟ . . . أهى فى الإرهاب ؟ . . . أهى فى الحرج الذى يقع فيه كل من يحمل رأياً يخالف آراء الأحزاب ؟ . . . لا أريد أن أعتقد ذلك ، وإنى لأود من الرجال الأحرار أن يقنعونى بغير ذلك ؛ فيأذنوا لى أن أعرض آرائى التى قد تخالف آراءهم . . .

رأيى الذى لم أقتنع بعد بخطئه : أن كل البلاء الذى نحن فيه ناشىء من نظامنا السياسى على وضعه الحالى ، ويظهر أن مصر

ليست وحدها الواقعة فى هذا البلاء . . .

فهاكم عبارات أضعها تحت الأنظار للمسيو « فلاندان » رئيس الوزارة الفرنسية الأسبق ، نشرت فى صحيفة « كانديد » بتاريخ ٢٨ يوليو سنة ١٩٣٨ م .

« ... إن « البرلمان الفرنسى » لم يعد له فى البلاد اعتبار . . . فقد كف عن مراقبة أعمال الحكومة بالمعنى الحقيقى . . . إنما الحكومة اليوم تحكم ارتكاناً على شـــبه توكيل من أغلبيتها البرلمانية ! . . . »

أليس هذا القول ينطبق على ما يقع فى مصر أيضاً ؟ . . . أوَليس معنى هذا أن الحصول على أغلبية برلمانية تمنح الحكم هو الهدف الأسمى لكل حزب سياسى ؟ ... وهو منبع الأتون الملتهب لذلك التطاحن الحزبى الذى لن ينطفىء ؟ . . . وهو المحرك الذى يدفع الأحزاب المتحاربة إلى المطالبة فى كل حين بتفريغ البرلمان وتعبئته ، تبعاً لمطامعها دون التفات إلى أثر تلك الهزات العنيفة فى كيان الشعب وأمواله وأخلاقه ! . . .

فلنستمع كذلك إلى قول مسيو « أندريه تارديو » ، رئيس

وزراء فرنسا الأســـبق فى جريدة «جرنجوار» ١٧ نوفبر سنة ١٩٣٨ م :

«الحقيقة هى أن كل أزماتنا الاقتصادية والمالية ليست إلا ثمرة نظامنا السياسى ... ثمرة تلك «الحرفة» البرلمانية ، التى تجمع فى نفس الوقت بين الاستبداد والعبودية ، بمالها من هذين الغرضين :

«١» تـكرار الانتخابات إلى مالا نهاية .

«٢» الوصول إلى الحكم .

«وإن هذه الغاية هى كل الحقيقة الثابتة فى الأمر إلى حد نرى معه «المعارضة» نفسها مجردة عن البرنامج الإنشائى ... مثَلها فى ذلك مثل «الحكومة» !... إن المعارضة لم تخترع شيئاً للعلاج سوى الإصلاح الانتخابى ، أى بمعنى آخر : لا شىء مطلقاً ... لماذا ؟ ... لأنها خاضعة لعين الأغراض والمطالب التى تسعى إليها «المهنة البرلمانية» ، وهى : إعادة الانتخابات ، والوصول إلى مناصب الوزارة ، أو بمعنى آخر : هذان الغرضان اللذان يبددان مال الدولة ... تلك هى كل الحقيقة الناصعة ...

نعم ... كل هذا صحيح إلى حد نرى معه المسيو «رينو» وزير

مالية فرنسا الحالى ، وهو يطالب بثلاث سنوات يطبق خلالها برنامجه ؛ — قد عرض لصميم المسألة السياسية : أين يجد هذه السنوات الثلاث ؟ ... أتراه يجهل أن فى مدى ثلاث سنوات تستهلك فرنسا ١٢ وزارة ؟ ...

وصاح « تارديو » فى ختام كلامه قائلا :

« إذا أردنا أن ننقذ ماليتنا فلابد قبـــل كل شىء أن نغير النظام السياسى ! ... »

أنا أيضاً أتمنى لمصر مثل هذه الصيحة القوية إذا أردنا أن ننقذ بلادنا الغارقة فى دماء الحرب الحزبية ، فلنصلح قبل كل شىء النظام النيابى ... بل أكثر من دم الحرب الحزبية ، هناك دم الوطن الجديد !... هناك الشباب ، أى مصر الغد ، إذا أردنا أن ننقذ مصر الغد فى شبابها ، فعلينا أن نصلح عيوبنا السياسية ؛ لأن ضررها قد امتد إلى أبنائنا ، وسمها زحف إلى صميم عملهم وكيانهم ومستقبلهم ! ...

ذلك أن الأوضاع الجديدة الديمقراطية — كما يُساء فهمها فى مصر — قد صرفت شباب اليوم عن الجد والعمل ... فإن

سريان داء الحزبية السياسية إلى كتلة الطلاب ، واستخدام الساسة للطلبة ذلك الاستخدام المعروف ؛ قد جعل الطلبة من جانبهم يستخدمون الساسة هم أيضاً للتدخل فى مسائل الدرس والامتحان؛ وبذلك فهم شباب اليوم أنهم بمجرد الشكوى والإلحاح والوساطة لتخفيف البرامج وتسهيل الامتحانات ؛ — يستطيعون بلوغ ما كان يبلغه أسلافهم بالكد والجد والعمل ! . . .

ثم كان من أثر تدخل السياسة فى شئون الطلبة والمدرسة أن ضعف نفوذ المدرسة ، هذا الضعف الذى أعجزها عن هداية الطلاب ! . . .

ثم كان من أثر تفشى المحسوبية — وهى أحد نتائج مرض الحزبية — أن دب التراخى والتواكل فى المعلمين ، وَغدا أكثرهم مثل بقية الموظفين وأكثرية الناس ، يتطلع إلى المادة والترقى عن طرق الوساطة ! . . .

وتأثر البيت بذلك ، وبما فهمه خطأً من مرامى كلمة الحرية والاستقلال ، فاستقل كل عضو فى الأسرة عن الباقين ، وتحرر فى تصرفاته واتجاهاته . . . وخرج عن طاعة رب البيت . . .

فتفككت عُرا الأسرة ، وحلت فيها الفوضى ، وفقد الوالدان السيطرة على الأبناء ، وأصبح الصغار هم الذين يقودون الكبار فى البيت وفى السياسة ! . . .

ولما كان الشباب هو طور اللهو والعبث وعدم المسئولية ، فإن تزايل الحواجز التى تنظم هذا الطور يؤدى حتما إلى جموحه وتغليبه ، وهذا ماحدث بالفعل من انطلاق الشباب إلى اللهو انطلاقا لا يحده شيء ولا يوقفه أحد ! . . .

والرأى عندى فى علاج كل هذا أن الأمر فيه موكل بتغير عام يحدث فى محيط المجتمع المصرى من جميع نواحيه السياسية والخلقية والدينية ، فلا المدرسة ولا البيت بمستطيعين الآن شيئاً كبيراً فى إصلاح مافسد ؛ لأن الفساد جاء من عاصفة جائحة لمبادىء شوهت وأسىء فهمها ، هبت فجأة على هذا البلد فقلبته ، «كما رأينا» شر منقلب . . . فالأمر أجل وأخطر من أن يعالج بالعلاجات الموضعية . . . إنما هى عاصفة أخرى جائحة من المبادىء الصحيحة السليمة ، ينبغى أن تهب فتقيم ما وقع وترم ما انهدم !...

ولكن المعضلة هى : كيف ومتى تأتى العاصفة المباركة ؟ . . .

فى رأيى أنها لا تأتى بغير إعداد واستعداد كما جاءت العاصفة الأولى الهوجاء ؛ فلقد دخلت تلك العاصفة خلسة من النافذة التى فتحها جهاد طويل مجيد وحركة وطنية مجيدة !...

وهنا يأتى دور البيت والمدرسة فى الإعداد والاستعداد ...
عليهما يقع عبء تفهيم الشباب أن هذه الحال التى هم عليها لا يمكن أن تدوم ، وأن عليهم أن يستعدوا لإصلاح ما بأنفسهم ... على البيت والمدرسة الإكثار من تذكير الشباب بالمثل العليا القويمة والمبادىء الخلقية السليمة ، وأن يعرضا عليه عيوبه وعيوب الجيل وأمراض العصر ، وأن يقنعاه بأنه هو المنوط به يوماً إصلاح كل هذا الفساد، وإحداث الثورة المباركة التى تقيم الوطن على أقدام الصحة والقوة والنظام !...

* * *

على أن نقدى للنظام النيابى لا يعنى أنى أطالب بإلغائه ؛ فزوال هذا النظام من عالمنا الذى نعيش فيه يفضى إلى مشكلات لا حل لها ؛ لأن هذا النظام ليس تدبيراً متعسفاً فرضته إرادة معينة فى وقت معين، وإنما هو نتيجة طبيعية لتطور فكرة السلطة

الشرعية منذ فجر التاريخ ! ...

ذلك أن الناس منذ خلقوا على الأرض فى هيئة جماعات منظمة . لم يكفوا عن التفكير فى مبعث سلطان من يحكمهم، فكانوا يعتقدون فى البداية أن الآلهة هى التى تحكم !! ...

هكذا تروى لنا الأساطير القديمة، ثم تركت الآلهة الأرض لحكام من أنصاف الآلهة ، ثم ترك حكم الأرض بعدئذ لملوك من البشر يستمدون سلطانهم من الآلهة ، وهنا ظهر نفوذ الكهنة فى سياسة الدولة ، فهم الجسر بين السماء والأرض ، من أيديهم تنتقل السلطة الشرعية من الإله إلى الملك ! ...

لم تمت هذه الفكرة بموت الوثنية ؛ بل استمرت فى العهود المسيحية ، ومضى رجال الدين يتوجون الملوك بإسم الله مبعث السلطان الشرعى لملوك الأرض !...

بناء على هذه الفكرة السهلة الواضحة كان اختيار الحاكم سهلا واضحاً ، ولكن جاء بعد ذلك الزمن الذى نبذ الله فيه الناس لأنفسهم — ولعله ضاق بهم — ولم يشأ الاستمرار فى تحمل تبعة كذبهم وافترائهم !... أو لعلهم هم الذين أرادوا ذلك، يوم قد موا

العقل والفكر على الإيمان والعقيدة ! ...

مهما يكن من أمر فقد جاء الوقت الذى أذن الله فيه للناس أن يفكروا برءوسهم ، وكان من أثر تفكيرهم أن تحملوا هم تبعة أعمالهم ، وبهـــذا تخلص الله نهائياً من مسئولية تعيين الحكام ، وترك للناس حرية الاختيار !...

وهكذا أصبح الناس أولياء الحق !...

ومن هنا نشأت « الديمقراطية » ، وكانت نشأتها فى عهـــد الإغريق ! ...

والإغريق هم أول من أخضع كل شيء لحكم الفكر والعقل والمنطق ... وبهذا ومن أجل هذا ، كانوا أول من أطاح بنفوذ الكهنة ، وسلطان الدين !!...

والآن حيث لا حق إلهياً ولا سلطان دينياً ولا تعيين سماوياً ، فالأمر متروك إلى الناس !...

كيف إذن يختار الناس حكامهم ؟... المنطق يقضى بأن نسأل الناس رأيهم ، وهذا السؤال قد اتخذ مسالك عدة حتى وصل آخر الأمر إلى طريقة الانتخاب ونظام الحكم النيابى ، كما نراه اليوم

فى البلاد الديمقراطية ...

والانتخاب على عيوبه هو الوســـيلة التى لا بد منها ، ما دام الناس هم أصحاب الرأى فى تنصيب حكامهم ! ..

ولقد اختلف الباحثون فى أيهما أهون على البشر : حكم الفرد طبقاً لاختيار السماء ؟ .. أو حكم الدستور طبقاً لانتخاب النـاس ؟ ... مهما تكن النتيجة فإن الرأى عندى هو أن طبيعة الحكمين مختلفة فى محاسنهما وعيوبهما !! ...

فحكم الفرد لا تظهر حسناته إلا إذا نظرنا إليه فى فترة سعيدة معينة بالذات ، لأن العبرة فيه بشخصية ذلك الفرد ، ومبلغ توفيق الظروف فى إظهاره . . . وعيوبه تتضح إذا أخذناه جملة ، لأن حسن المصادفات التى تأتى بالفرد الصالح لا تتكرر كثيراً !...

أما النظام النيابى فعلى النقيض ، تظهر عيوبه إذا نظرنا إليه فى فترة معينة ومكان معين ، وتبدو حسناته إذا تناولناه جملة ، وأحطناه بنظرة شاملة لأوقات مختلفة وحلقات متتابعة لأن هذا النظام له هذه المزية : وهو أنه يصحح ذاته بذاته ، ويحوى الداء والدواء فى طياته !!...

على أن الحـكمين فى الحقيقة ؛ بل كل حـكم على هذه الأرض مردّه الوحيد إلى الشخص ، ومرجعه إلى الرجل !!...

فالنظم الســياسية ، والأوضاع الديمقراطية ، والمبادىء المثالية ، — ليست فى ذاتها كل شىء ، ومهما تصلح من فاسدها ، وتبلغ من كاملها ، فلن يغنينا ذلك إلاّ قليلا ، ما دام الفساد ينخر فى نفوس الأشخاص ! ... وما قيمة إطار جميل لصـــورة قدرها ضئيل؟... وما نفع الثوب الرائع لشخص منحل معتل ضائع ؟...

إن الحكم المثالى ، فى واقع الأمر ، ليس فى المبادىء المثالية ؛ بل فى الأشخاص المثاليين ...

ما أضعف المبادىء أمام الأشخاص !!...

أكبر خطر على المبادىء هم الأشخاص ! . . .

المصلحة الشخصية هى دائماً الصخرة التى تتحطم عليها أقوى المبادىء ! . . .

ففى مصر وما شابهها من بلاد الشرق ، تتمثل المصلحة الشخصية فى ذات رجل الحكم . . . فى شهوة الحكم للحكم ورفاهيته وسلطانه وسيطرته . وأبهته وعزته !...

وفى البلاد المتحضرة الكبرى — حيث الرأى العام اليقظ ، والضمير القوى المنتبه — تتمثل المصلحة الشخصية لا فى ذات رجل الحكم؛ بل فى ذات دولته ورفاهيتها وأبهتها وسلطانها وعزتها وسيطرتها ومكانتها ، ويصبح رجل الحكم فيها أداة لتحقيق هذه السيادة والسيطرة ولو ضحى فى سبيل ذلك بالمبادىء الإنسانية ونقض المواثيق العالمية !...

فى أمثال مصر من البلاد لا يستطيع السياسى أن يتجرد من مآرب ذاته ومطامع شخصه عنـــد مواجهته للمبادىء الوطنية القومية !...

وفى أمثال انجلترا من البلاد ، لا يستطيع السياسى أن يتجرد من مآرب أمته ومطامع دولته عند مواجهته للمبادىء الإنسانية العالمية . . .

تلك هى مأساة الحكم فى كل زمان ومكان ؛ بل تلك هى مأساة الضعف الإنسانى !... خير مصر والبلاد الشرقية فى محيطها الصغير ، وخير العالم كله بدوله الكبرى والصـــغرى فى محيطها الكبير ؛ يتوقف على ظهور حفنة من رجال نسوا — فى لحظة من اللحظات —

أبهة أشخاصهم وسيادة دولهم ؛ ليعملوا خالصين مخلصين لتحقيق المبادىء المثالية على الأرض ، بما تحويه من عدالة وحق وتعاون ومحبة وإخاء !...

ولكن هيهات !... هيهات ! ... إن ظهور هؤلاء الرجال لمن المحال !! ...

إن معجزة الأنبياء ليست فى مبادئهم بقـــدر ما هى فى أشخاصهم . . .

فالخير والشر ، والفضيلة والرذيلة والهدى والضلال ؛ أفكار ومبادىء ونوازع يعرفها الناس قبـــل ظهورهم ، وليس مجرد الدعوة إليها أو النهى عنها هو كل ما جاءوا به من جديد ، ولكن الجديد فى النبي هو شخصيته !...

إنه تلك المبادىء العليا لا فى هيكل كلمات ؛ بل فى هيكل لحم ودم ! ... شخصه مبادئه ، ومبادئه شخصه ، ولا سبيل إلى فصل أحدهما عن الآخر !! ...

ذاته هى الفكرة المثالية ، والفكرة المثالية هى ذاته ، يعيشان معاً فى السر والعلن ! ... لذلك نظر الناس إلى الأنبياء مشدوهين

يتساءلون : أهم من طين ؟ ... أم عجنوا بنور تلك الفكرة التي من أجلها جاءوا ؟... ذلك أن النور العلوي يحف بأشخاصهم ، ويشع من أجسادهم ! ... لهذا صدقهم الناس واتبعوهم ، وانقلبت تلك المبادىء المعروفة ، وتحولت في أيدي الأنبياء إلى دين يبذل الناس في سبيله الأرواح ويجودون من أجله بدمائهم راضين!!...

لاخير في فكرة لم يتجرد لها صاحبها ولم يجعلها رداءه وكفنه، بها يعيش وبها يموت ...

في رأسي كلمة لـ « نيتشه » أحفظها منذ أكثر من عشرين عاماً ولا أنساها :

« ليست قوة المشاعر العظمى هي التي تخلق العظماء ... ولكن مدتها » ! ...

نعم ! ... نعم ! ... إن المشاعر الكبرى في متناول الجميع ، ولن تكون عظيمة بقوتها ، ولكن بمدتها ! ...

ما من شك عندي في أن أكثر رجال السياسة والحكم في مصر قد خالجتهم يوماً أعظم مشاعر التضحية والبطولة ، ولكن إلى أي وقت عاشت في قلوبهم هذه المشاعر ؟... وإلى أي مدى احتفظوا

بقوة هذه العواطف فلم يلينو بعد ذلك لمغريات المنصب ولم يذعنوا لشهوات النفس ، ولم يخضعوا لمطالب العيش ، ولم يجرفوا في تيار النعمة والأبهة والرفاهية ؟؟...

ما أكثر أولئك الأبطال الذين يبدءون بالعذاب والتضحية والتشريد وينتهون إلى اللذائذ والأرائك والعيش الرغيد ! . . .
وما أندر أولئك الأبطال الذين يعيشون بفكرتهم العليا مشردين، ويموتون بها محشورين في زمرة المساكين ! ... تلكم هي العظمة !...

شجرة الحكم

فى الآخرة ـــ فى الدنيا

فى الآخرة

«جنة الخلد بأشجارها وأثمارها وحورها
وقطوفها الدانية ! . . . . . . »

١

« صاحب الدولة » و « صاحب المعالى »

« صاحب الدولة » يتمشى فى الجنة باسماً
مرحاً بقرب نهر « الكوثر » متأبطاً ذراعى
حوريتين جميلتين ... ... »

* * *

الحورية الأولى : « باسمة » ما رأيك فى الجنة ؟ ...

صاحب الدولة : بديعة كنسائها !... ولو كان بقبضتى زمام الحكم
هنا لأنشأت على هذا الكوثر « كورنيشا » !...

الحورية الأولى : « باسمة » مثل « كورنيش الإسكندرية » ؟ !...

صاحب الدولة : « يلتفت إليها فجأة » ما كنت أحسب نساء الجنة على
مثل هذا الذكاء ! ...

الحورية الأولى : من حسن حظنا أن يدخل مثلك الجنة ...
إنى لأتساءل : لو لم تجىء أنت ها هنا فمن ذا
الذى كان يقدّر ذكاءنا ويتذوق جمالنا ؟ ...

أهؤلاء النساك أصحاب اللحى الكبيرة والسبح ذات الجلال والوقار ؟! . . .

صاحب الدولة : إنك ظريفة حقاً ... أين رأيتك قبل الآن؟... ألم نتقابل فى الدنيا فى مكان ما ؟ ... فى سهرة مثلا ، أو فى . . .

الحورية الأولى : كلا ... مطلقاً !... لم أرك قبل الساعة !... ماذا كنت تصنع فى الدنيا ؟ ... وأين كنت ؟...

صاحب الدولة : كنت فى مصر ، رئيساً للوزارة ، وصاحب حزب من أقوى الأحزاب،بنيته بيدى فى أقل من شهر !...

الحورية الثانية : صاحب حزب !؟... ما هو الحزب ؟ ... أهو « فيللا » أم « عمارة » ؟ ...

الحورية الأولى: كلا أيتها البلهاء!... بل هو «عشة فى رأس البر» فهى وحدها التى يمكن أن تبنى فى أقل من شهر ! . . .

صاحب الدولة : « ممتعضاً » أنتما لا تفهمان شيئاً فى السياسة ،

فلنتكلم فيما يفهمه النساء ...

الحورية الثانية : تقول إنك كنت رئيساً للوزارة . . . ما معنى هـــذا ؟ . . .

الحورية الأولى : ألا تعرفين رئيس الوزارة ؟ . . . يا لك من حمقاء ! ... هو رئيس الحكومة الآمر الناهى... الذى يعين ويفصل ويحيل إلى المعاش بقرار من مجلس الوزراء ، ويعطى ويمنع ، ويتصرف فى الميزانية والمصاريف السرية ، ويتزاحم حوله ذباب المحاسيب والمقربين، ويجتمع ببابه فريق العساكر والمخبرين ، وتتقـــدم سيارته «الموتوسيكلات» و «الكونستبلات» ، حتى إذا ما استقال أو أقيل ، تخاطفته مجالس إدارات الشركات ! ...

صاحب الدولة : «يغمض عينيه» آه لا تذكرينى ... لا تذكرينى ...

الحورية الأولى : « تنظر إليه » ماذا دهاك ! ...

صاحب الدولة : « يثوب الى نفسه» لاشىء ! ... « يتنهد » إن الدنيا

كانت حقيقة حلوة ...

الحورية الثانية : « تلفتت خلفها ، وتصيح » صه ! ... أنظر ! ...
أنظر ! ... من هـــذا الرجل الأنيق بين
حوريتين ؟! ...

صاحب الدولة : « يلتفت دهشا» ماذا أرى ؟ ... زميلي ! ...

« يدنو الرجل الأنيق فما يكاد يلمح صاحب
الدولة حتى يترك حوريتيه ، ويفتح فاه دهشة
وعجبـــا ... ... »

صاحب المعالي : مستحيل !! ... دولتك في الجنة ؟ ... هذا غير
معقول ! ...

صاحب الدولة : « يترك هو كذلك حوريتيه ويقبل على زميله » معاليك
هنـــا ؟ ؟ ...

صاحب المعالي : دولتك ! ...

« يتعانقان ... ... »

صاحب الدولة : أأنت حقيقة في الجنة ؟! ...

صاحب المعالي : وأنت ؟... أخبرني هل أنت ! ...
أنت ... هنا ؟! ...

صاحب الدولة : « باسما » كما ترى . . .

صاحب المعالى : هذا من أعجب ما يتصوره العقل البشرى . . . دولتك فى الجنة ! ...

صاحب الدولة : ما وجه الغرابة ؟ . . .

صاحب المعالى : كيف أدخلوك هنا ؟ ! . . .

صاحب الدولة : أدخلونى كما أدخلوك ، وكما أدخلوا غيرى من . . . المؤمنين الصالحين ! . . .

صاحب المعالى : المؤمنين الصالحين ! . . .

صاحب الدولة : « باسما » أتشك فى ذلك ؟ ...

صاحب المعالى : تدخل الجنة بعد أن كان منك فى دنياك ما كان ؟ ؟ ...

صاحب الدولة : ماذا حصل ؟... وإذا كان قد حصل ماحصل ، فهل منعنى ذلك من دخولى فى الدنيا أى مكان أحببت الدخول فيه ؟ . . . إنى أستطيع أن أذهب إلى أية جهة تروقنى . . . وأستطيع أن أدخل أى مكان يعجبنى ، وأستطيع أن

أدخل ... في ... عينيك !! ...

صاحب المعالى : نعم !... لباقتك ودهاؤك وانتهازك الفرص ... انتظر . . . ألا تكونُ انتهزت فرصة إغفاءة من حارس الجنة ، وانسللت كما هي العادة ! ...

صاحب الدولة : أوَ تظن حارس الجنة يغفى ، أو يسهو أو يغفل ؟! ...

صاحب المعالى : صحيح . . . إنه لا يمكن أن يكون مثل أهل مصر ! ... إذن كيف دخلت ؟ ...

صاحب الدولة : وأنت كيف دخلت ؟ . . . أليس لى أنا أيضاً الحق في التساؤل والتعجب ؟ ! ...

صاحب المعالى : لك الحق بلا شك . . . أنا نفسى عجبت لأمر نفسى ، ولكن بعد أن رأيتك هنا بعينى لم يعد شيء يدهشنى ! ...

صاحب الدولة : اسمع ياباشا !...ألا يكون دخولنا الجنة قد وقع على طريقة دخولنا « البرلمان » سنة «...» !...

صاحب المعالى : كنت أصدق ذلك ، لو كان انتخاب أهل الجنة

قد كان بواسطة رجال إدارة، وعمد، وخفراء
كالذين كانوا فى الدنيا تحت سلطة دولتك ...

صاحب الدولة : صدقت ! . . . انتخابات أهل الجنة لا بد أن تكون مضبوطة !!... تكون ...

صاحب المعالى : مضبوطة !!... وا فرحتاه !!... نحن — أول مرة — إذن ننتخب انتخاباً صحيحاً فى شىء ما!...

صاحب الدولة : هذا لاشك فيه !! ...

صاحب المعالى : ولكن ما السبب فى اختيارنا ؟! ... هذا ما يحيرنى دائماً ! ...

صاحب الدولة : ألا يمكن أن نكون قد صنعنا بعض الحسنات دون أن نتذكر ؟ ...

صاحب المعالى : أنا على كل حال لا أذكر لك شيئاً ! ...

صاحب الدولة : ألم أطعم مرة فقيراً ؟ ... ألم أنشىء مطاعم للفقراء ؟ . . .

صاحب المعالى : إنشاء مطاعم للفقراء لم يكن الغرض منه إطعام الفقراء ! . . .

صاحب الدولة : سبحان الله فى طبعك!... وأنت ماحسناتك؟...

صاحب المعالى : لقد بنيت عمارة شاهقة فى أغلى بقعة فى القاهرة!! ...

صاحب الدولة : أتسمى هذه حسنة ؟...

صاحب المعالى : لقد عملت بمبدأ « اعمل لدنياك ، كأنك تعيش أبداً ! . . . »

صاحب الدولة : وأين الشطر الأخير من المبدأ ؟...

صاحب المعالى : هل له شطر آخر ؟...

صاحب الدولة : « واعمل لآخرتك ، كأنك تموت غداً ... »

صاحب المعالى : لقد عملت ما قدرت عليه وهو خمسون فى المائة من المبدإ ... أليس فى هذا القدر كفاية ؟... ومع ذلك لنكن عمليين كما كنا فى الدنيا ، العبرة بالنتيجة . . . وها نحن أولاء الآن فى الجنة ، فما لنا وللبحث عن الأسباب ؟!...

صاحب الدولة : فى الواقع ، نحن الآن فى الجنة فلماذا نستكثر على أنفسنا الخير ؟ ... أتريد الحقيقة ؟ ... إن

الجنة لمن يستطيع أن يتذوق الجنة !!...

صاحب المعالى : يشهد الله ، وتشهد دولتـــك أنى من خير المتذوقين للنعيم فى الدنيا والآخرة !!...

صاحب الدولة : قل لى يا باشا !... إن الجنـة بديعة ... أليس كذلك ؟ . . .

صاحب المعالى : طبعاً ... أبدع من النار على كل حال ! ...

صاحب الدولة : ألا ترى مع ذلك أنها ينقصها شجرة ذات فاكهة شهية ؟ ! ...

صاحب المعالى : شجرة « الحُكم » !...

صاحب الدولة : كيف حزرت ؟...

صاحب المعالى : ما من فاكهة ألذ منها ! . . . من ذاقها مرة فلن ينساها أبد الدهر ! ...

صاحب الدولة : ولماذا لا تكون هذه الشجرة هنا ؟...

صاحب المعالى : لأنه لا يمكن أن يكون هنا حاكم ومحكوم ؛ كما لا يمكن أن يكون هنا ظالم ومظلوم !؟...

صاحب الدولة : أصبت !... وحتى لو كانت هـذه الشجرة هنا

لتكالب عليها الناس أجمعون ، وخصوصاً كل
أصحاب الدولة والمعالى السابقين ، من عهد
« نوح » إلى « يوم الدين » ...

صاحب المعالى : مؤكد !... ولما تركوها غير أغصان عارية ليس
فيها ثمرة واحدة ! ...

صاحب الدولة : حقاً ؛ إذ أن هذه الفاكهة ليس لها شوك يصد
عنها الناس ! . . .

صاحب المعالى : الشوك هو المسئولية ، وفاكهة الحكم كما ذقناها
في مصر لم يكن لها شوك ولا نوى!... بل كانت
سهلة المأخذ ، سائغة المأكل !... أما في أوروبا
حيث الرأى العام المتيقظ ، يحيط هذه الفاكهة
بأسلاك شائكة من المسئولية ؛ — فإن كثيراً من
الناس يعافونها ويخشون أن يمدوا إليها يداً !.

صاحب الدولة : إن وجدت هذه الفاكهة هنا فهى ولا شك من
النوع المصرى السائغ اللذيذ !...

صاحب المعالى : كفى يادولة الباشا !... إنك تسيل لعابى ، فلنترك

هذا الموضوع ، ولنقنع بما قسم لنا ! . . . إن
الجنة فيها ما يمكن أن يشغلنا ...

صاحب الدولة : « كالخاطب لنفسه معزياً نفسه» ومع ذلك ... إن لذة
الوزارة قد قلت منذ أن أدخل « النظام
البرلمانى » . . . ألا تذكر ؟ . . .

صاحب المعالى : نعم ... لقد أصبح أى شخص من السهل عليه أن
يكون وزيراً بدل أن يكون موظفاً فى الدرجة
الثالثة ! . . .

صاحب الدولة : وا أسفاه ! ... لم تعد الكفاءة شرطاً لدخول
الوزارة ؟ . . .

صاحب المعالى : ومتى كانت الكفاءة يا دولة الباشا فى مصر
شرطاً لدخول الوزارة ؟...

صاحب الدولة : — صدقت ! ... ولكن فى العهد القديم ، يوم
كان ولى الأمر هو الذى يختار — سواء كان
هذا الولى مصرياً أو أجنبياً — فهو وإن كان
أيضاً يخضع لاعتبارات خاصة فى الاختيار ،

إلا أنه كان دائماً يرعى توفر شروط الكفاءة.
في الإدارة الحكومية على الأقل ، إلى جانب
شروط اللياقة والكياسة والمقدرة على إقرار
النظام وحفظ الأمن الخ الخ ... ولكن انظر
إلى الاختيار وقد ترك أمره الآن في يد
الشعب ... إنه كما قال «هتلر» في إحدى خطبه :
« قد يكون من الأيسر أن نأمل في رؤية جمل
يمر من ثقب إبرة ، على أن نأمل في رؤية رجل
عظيم يكتشف عن طريق انتخاب الجماهير » !.

صاحب المعالي : هذا يادولة الباشا قول يجوز في ألمانيا وأوربا ،
أما في مصر ، فمن قال إن الشعب أو الجماهير
تنتخب أحداً ؟ ...

صاحب الدولة : صدقت، إن الحال في مصر أيضاً أعجب من ذلك ،
فإن الشعب لا ينتخب ، ولا يدري ما هو
الانتخاب ، ولكنه يرى معدات « الموسم »
قد نصبت ، ويسمع الطبل والزمر ، ويجد

أشخاصاً قد أقبلوا فى السيارات ... « يجمعون » أصواته بالنقود والوعود ؛ فشأنه فى « موسم الانتخاب » كشأنه فى « موسم دودة القطن » سواء بسواء ، حيث يرى سيارات مقاولى الأنفار « الترحيلة » قد أقبلت تجمع الأنفار بالجبوب والنقود ، وهكذا يعمل جماعة من المقاولين لحساب جماعة من الممولين، يصبحون فى الغد هم الوزراء ! ...

فأين إذن الكفاءة فى كل ذلك ؟ ...

المسألة بسيطة : جمع « الأصوات » وجمع « الدودة » إن هما إلا عملية واحدة فى أرض مصر ... عمادها النقود ومقاولوا الأنفار من جانب، و«ساعد الحكومة» من جانب آخر ... فمن آزره أحد العاملين، فقد جمع «دود» أطيانه، وجمع «أصوات» أنفاره ، وضمن «المحصولين» فى دائرته السعيدة وناحيته العامرة !! ...

وبذلك ينتهي الموسم وينكشف كل فريق عن أوراقه ، فيصبح الفريق الأكثر مالا ، أو الأقوى سلطاناً ، أو الأمهر دجَلا صيحة الانتصار ! ... ويعلن أن الأمة قد أحسنت « الاختيار » !...

صاحب المعالي : « يضحك » هذا صحيح ! ... كل هذا صحيح ! ... ولكنك نسيت يا دولة الباشا أنك لجأت إلى كل هذه الوسائل وحذقتها أكثر من غيرك !...

صاحب الدولة : إني معترف بذلك ، وهل كنت تريد مني ألا أنتفع خير انتفاع بهذا الطريق الجديد السهل المختصر للوصول إلى الحكم ؟... مادامت تلك كانت «عملة» العصر التي تظفر بالغنيمة ؟... فهل من لوم عليّ إذا حذقت التعامل بها في تلك السوق ؟...

« تتهامس الحور الأربع، وقد كن يسمعن ما يدور بين الوزيرين ، صامتات دهشات ، وهن على مقربة منهما ... ... »

حورية : « تسأل جارتها » عجباً !... كل حديثهما فى السوق والموسم والوصول إلى الحكم ولذة السلطة والانتصار على الفريق الآخر والظفر بالغنيمة؟. ماذا كان عمل هؤلاء فى الدنيا ؟!...

إحدى الحور : وزراء !...

الحورية : اللهم حكمتك ومشيئتك !... ولماذا إذن أدخل الجنة مثل هؤلاء ؟!...

إحدى الحور : تقديراً لبراعتهم ! ... فقد استطاعوا الاحتفاظ بإجلال أمتهم لهم بعد كل ذلك !...

الحورية : أصبت !... حقاً إنها لبراعة !!...

٢

« الزعيم الوطنى » و « كاتم السر »

« يسيران فى الجنة وهما باسمان يتبختران
وحولهما وخلفهما جموع من الحور والولدان»
تلوح ببعض الأغصان وتهتف من أعماق
حناجرها . . . . »

* * *

الحور والولدان: فليحى الزعيم !... فليحى الزعيم !...

« يأتى بعض أتباع سيدنا رضوان . . »

أتباع رضوان : ما هذا الهرج والمرج والصخب والشغب ؟...
ومن الذى أذن لكم فى تكسير أغصان الجنة
والتجمهر والهتاف ؟؟ ...

الزعيم : دعوهم ؟ ... دعوهم ؟ ... ما شأنكم ؟ ... ولماذا
تتدخلون ؟ . . . اتركوا الجميع يظهرون
شعورهم !... حتى هنا يمنعون المظاهرات السلمية

بالقوة والعنف !...

أتباع رضوان: الجنة مكان هادىء ! . . . نحن الموكلين بحفظ النظام نرى فيها أول مرة هذا النظام ...

الزعيم : حفظ النظام ؟ ! ... أنتم أيضاً تعلمتم أن تحتجوا بهذه الألفاظ !... يظهر أن فى الأمر علة ! ...

أتباع رضوان: « يفرقون الجموع » انصرفوا إلى شأنكم ... تفرقوا فى الجنة الواسعة !...

«يذهب الجميع ولايبقى غير الزعيم وكاتم السر»

الزعيم : سبحان الله ! ... أفى كل مكان ندخله يعتبروننا عنصر شغب !...

كاتم السر : هو كيد خصومنا ...

الزعيم : ولماذا الكيد ؟ ... هل هنا أغلبية ؟ ... هل هنا انتخابات حرة ؟ ... لماذا يكيدون لنا إذن ؟ ... لا... لاشك أن فى الأمر شيئاً ... لماذا لانقول مثلا : إنهم على حق ، وإننا فعلاً عنصر شغب دون أن نشعر ؟...

كاتم السر : وما الضرر ؟ ... لقـــد قيل إن أكثر الرسل كانوا
كذلك !... إليك المسيح مثلا ، لقد اتهمه أهل عشيرته
من اليهود بأنه يبذر بذور الشغب فى أرض «أورشليم»،
وأقنعوا الحاكم الرومانى بأنه خطر على الأمن والنظام
ولا شيء كان يهم ذلك المندوب السامى الرومانى أيضاً
غير كلمة الأمن والنظـام المسئول عنهما أمام روما ،
فلمـا دخل فى روعه أن المسيح عنصر شغب لم يتردد
طويلا ... وأسلمه لأعدائه فصلبوه... نحن أيضاً كنا
رسل وطنية ؛ فلماذا لا يحق علينا بعض ما حق على
رسل الأديان ؟!...

الزعيم : نعم ... كنا رسل وطنية ، لقد صدقت ، ولقد سارت
خلفنا الجموع ؛ لأنهم وضعوا فينا الثقة واعتقدوا
فينا هذا الاعتقاد ؛ ولـكن ... وا أسفاه ! .. يخيل
إلىّ أننا ارتـكبنا غلطة ! ... نحن هنا الآن فى مكان
هادىء كما يقولون ولا بأس من أن نحاسب أنفسنا ؟...
ألا ترى معى أننا لم نستطع المحافظة طويلا على قداسة

نبوتنا الوطنية !... إنى الآن أفكر بعيداً عن الماضى
فتنجلى لى هذه الحقيقة : لقد كان ينبغى لنا أن تقول
للوطن بعد أن جئناه بوثيقة حريته : « أيها الوطن ،
إليك ما استطعنا أن نعطيك بعد جهادنا الطويل ؛
فاحكم الآن نفسك طبقاً للمبادىء التى غرسناها
فيك ... أما نحن فليس لنا بعد اليوم مطمع ، وسنبقى
بعيداً عن الحكم وعن الخلافات والمآرب والمنازعات ...
ولن نتحرك إلا يوم تطلب أنت إلينا النصح
والمشورة ، أو يوم نراك فى خطر ، أو نرى المبادىء
الكبرى معرضة للإنهيار !... »

لو كنا قلنا ذلك وفعلنا ذلك فى تلك اللحظة لكان
الوطن قد أجمع كلمته على وضعنا أحياء فوق قواعد
من الرخام . . .

كاتم السر : نعم . . . كان الوطن قد دفننا أحياء تحت قبر من
الرخام ، وكان الناس قد نسونا بعد نفض أيديهم
من تراب المقبرة !...

الزعيم : إنهم ما كانوا يستطيعون أن ينسونا . . . فنحن رمز المبادىء التي بها يعملون،وفي ظلها يعيشون !... إنا لن نكون أمواتاً فوق قواعدنا الرخامية وتحت هالتنا القدسية ، ولكننا نحمل في أيدينا مصباح المبادىء ، ونشير بأصابعنا إلى الطريق الذي يهدي الناس !...

كاتم السر : إن النـاس لا تكلف أنفسها في كل وقت مئونة رفع أبصارها إلى أصابع التماثيل !... «الحكم» هو كل قوة المبادىء !... خصوصاً في مصر !... إن المبادىء بغير حكم كالقفاز بغير أصابع ! . . . هل يستطيع القفاز أن يحرك شيئاً أو يقبض على شيء بغـــير أصابع في داخله ؟...

الزعيم : قلت لك ما كان ينبغي لنا أن نريد تحريك شيء أو القبض على شيء . . . إن مهمتنا ورسالتنا بعد تقديم وثيقة الحرية كان يجب أن تكون مقصورة على حمل المبادىء مجردة حتى يراها الناس . . .

كاتم السر : النـاس في مصر قصيروا البصر ، ولن يروا المبادىء

إلا إذا ارتفعت فوق الكراسى ! ...

الزعيم : لا ... لست من رأيك ... إن للمبادىء فى ذاتها نوراً يكشف عن وجودها . . . وحتى القوة المسلحة ما استطاعت يوماً أن تخنق المبادىء... هذا ما كنا على الأقل نهتف به فى أول جهادنا الوطنى... ألا تذكر؟...

كاتم السر : أذكر... وما تقول صحيح... ولكنى ما برحت أخالف زعيمى فى قوله إننا أخطأنا باستمرارنا فى ميدان الحكم والسياسة الحزبية . . . نحن فى حقيقة الأمر ما كنا نملك أن نصنع غير ما صنعنا ، وحتى لو كنا أردنا الزهد فى الحكم لما استطعنا ... نحن إنما كنا نخضع لمقتضيات تلك المبادىء نفسها ، وهى التى أرادت ذلك ... ألم نكن نمثل الأغلبية ؟ ... ألم يكن على الأغلبية أن تحكم طبقاً لمبادىء الدستور والديمقراطية؟. نحن كنا نحكم نزولا على حكم المبادىء ...

الزعيم : آه يا صديقى ... لا تكلمنى الآن بذلك المنطق البارع الذى حذقنا الكلام به فى الدنيا . . . قاتل الله البراعة

السياسية ، إنها ككل براعة تخلط الحق بالباطل ، فلا يستطيع الإنسان أن يميز شيئاً ! ... نحن لم نكن في الدنيا وحدنا كما نحن الآن ... بل كانت تحيط بنا مؤثرات حزبية وشهوات بشرية ، وكانت في أيدينا تلك البراعة السياسية . . . فمن يدريك أن الأمور لم تختلط علينا نحن أنفسنا ، فلم ندر أجعلنا المبادىء مطية لأشخاصنا أم أشخاصنا مطية للمبادىء ؟ . . . إني أكلمك الآن بلغة إنسان يريد أن يحاسب نفسه ، لا بلغة سياسي يريد أن يبرر عمله . . . إني عندما حاسبني الملكان شعرت أن ضميري يصفو كالبلور كلما أمعنت في اتهام نفسي والقسوة عليها . . . ولعل أكثر أهل الجنة فعلوا ذلك ... ألم يحدث ذلك لك ؟ ... ماذا قلت للملكين ؟...

كاتم السر : قلت لهما الحساب مع زعيمي ! ...

الزعيم : يالك من ماكر !... أرأيت ؟... إنك تحملني المسئولية كلها في آخر الأمر ، لماذا إذن تؤثر ببلاغتك وقوة

عارضتك ، فيما يراه ضميرى النقى وفطرتى السليمة...
ما زلت أقول لك إن غلطتنا الكبرى هى قبولنا
الحكم ... ألا تذكر أننا كنا دائماً ندخل باب الحكم
متدثرين بالبياض وعلينا من الجلال هالة ، فنخرج
من الباب الآخر بعد قليل ممزق الثياب... إذا أردت
الحقيقة ، فنحن لم نكن نصلح للحكم ، ولم يكن يصلح
لنا ... عبقريتنا الحقيقية كانت خارج الحكم ! ...

كاتم السر : لا تقل إننا لم نكن نصلح للحكم . . . لقد كنا نعمل
ونتعب ونجهد ، وإنك لا شك تذكر أن وزنى كان
ينقص كثيراً أيام الحكم !...

الزعيم : نعم . . . كان وزنك ينقص ، وكذلك محبة الناس لنا
كان وزنها ينقص هى الأخرى !...

كاتم السر : هم خصومنا الذين كانوا ينتقصون من قدر سمعتنا ! ...

الزعيم : ولماذا كان يكثر عدد خصومنا ونحن فى الحكم ؟...
لأننا كنا نرتكب أخطاء ، لقد كنا ننسى أنفسنا
على الكراسى ، فتمتد أيدى المنتفعين والمستغلين

إلى جيوبنا دون أن نشعر ، فكثرت المحسوبية والوصولية وكادت تتشوه تلك المبادىء التى نصبنا أنفسنا لحمايتها ونشرها . وسقانا المريدون والمغرضون خمر الغرور ، باسم كلمة « الأغلبية المطلقة » ، فكدنا ننزلق إلى نوع من حكم الطغيان ، لا يمكن أن تقره مبادئنا ولا ماضينا الديمقراطى النزيه ، فأنت ترى حتى المبادىء العزيزة علينا فسدت فى أيدينا ونحن على الكراسى ! ... فما قولك فى كل هذا ؟ ...

كاتم السر : قولى فى كل هذا إنه صحيح ، ولكنه لا يدل مع ذلك على فساد فينا ! ... لا ينبغى أن ندين أنفسنا إلا إذا كان الشر ناتجاً منا ، ولكن الشر فيما ذكرت ناتج من النظام ، كل أغلبية مطلقة تؤدى إلى الانزلاق نحو الطغيان ... لاتنس أن «كرومويل» كان نتيجة ثورة برلمانية وأن «نابوليون» هو ابن الثورة الديمقراطية ، وأن «هتلر» هو وليد أغلبية برلمانية دستورية، وهل تجرؤ حكومة على القبض على زمام الحكم المطلق

إلا على أثر أغلبية برلمانية شبه مطلقة ؟ ... فإذا أردت أن تعيب سلوكنا فعب علينا أننا حزنا أغلبية مطلقة أو شبه مطلقة فى يوم من الأيام ! ... إنه عيب النظام لا عيبنا نحن ... نعم ، حتى الديمقراطية تحمل ضدها بين ثناياها ، وسمها فى طياتها ! ...

الزعيم : فليكن عيب النظام ، ولكن هذا لا ينفى القضية ، ولا يطرح عنا مسئولية الانزلاق فى الأخطاء ، كلما امتطينا صهوة الحكم ! ...

كاتم السر : فى كل حكم انزلاق... مَنْ ركب هذه المطية ينزلق... إننا لن نكون أحرص من بعض أنبياء الأديان ... إليك النبى «موسى» مثلا... كان نبياً للإنسانية، وكان حاكما ورئيساً لشعب وعشيرة وطائفة، فهو — كنبى — يبشر بالمبادىء العليا السامية ، فجاء فى « التوراة » : « إذا صادفت ثور عدوك أو حماره شارداً فرده إليه » ولكنه كرئيس حكومة أو شعب أو حزب أو طائفة ، — أوصى شعبه بعكس هذه المبادىء فجاء

في سفر الخروج « خروج بني إسرائيل من مصر »
في التوراة : وفعل بنو إسرائيل حسب قول موسى ،
طلبوا من المصريين أمتعة فضة ، وأمتعة ذهب وثياب
حتى أعاروهم ؛ فسلبوا المصريين !... » ذلك هو « الحكم »
وتلك هي « السياسة » في كل زمان ومكان ، سواء
كانت في يد نبي أو في يد إنسان ! ...

الزعيم : ربما اضطر بعض الأنبياء إلى الانحراف لمصلحة
اقتصادية أو اجتماعية تنفع عشائرهم ، ولكننا نحن
لم نكن مصلحين اجتماعيين ولا اقتصاديين نحن
لم نكن غير قادة ثورة سياسية ، وزعماء جماهير
ولا شيء غير ذلك ! ...

ما هو الانقلاب الاجتماعي الذي أحدثناه ؟ ...
وما هو الإصلاح القومي الذي شيدناه ؟... لقد كانت
في أيدينا الجماهير ، كأنها ألعوبة في لحظة من اللحظات،
ولو كنا أردنا أن نطفر بتلك الأمة طفرة نافعة ،
أو ننهضها نهضة قوية في حياتها الداخلية ؛ —
لاستطعنا !... ولكننا لم نفعل لأننا لم نفكر في ذلك؛

لأن التفكير فى هذه المسائل يستلزم روحا مصلحاً ،
ونحن لم نكن ذلك الروح المصلح !...

كاتم السر : لا تبالغ فى اتهام نفسك ! ... إن نظامنا السياسى لم
يكن قد أحكم بعد بناؤه، إنه كان كالبيت الجديد الذى
لم يوضع فى نوافذه زجاج، فأى روح مصلح كان لا بد
له أن ينطفىء سريعاً ، كالشمعة تحت الريح الهابّة من
كل مكان ! ... ومع ذلك من هو ذلك المصلح الذى
ظهر داخل إطار ذلك النظام ؟...

الزعيم : لست أدرى ... أذكر أنه ظهرت مع ذلك شبه بوادر
إنشائية ونزعات إصلاحية لم تصدر من ناحيتنا على
كل حال ... نحن الذين كنا نستطيع أكثر مما يستطيع
غيرنا ، لأن الشعب كان فى وقت ما كالعجينة
فى يدنا !...

كاتم السر : لا تنس أننا كنا رسل مبادىء قبل كل شىء ، وليس
أخطر على الرسل فى كل زمان ومكان من الإصلاحات
الاجتماعية ... إن «النبى محمداً» عندما أراد أن يبطل

الخمر عالج الأمر بمنتهى الحرص والتأنى ، وتدرج بالشعب خطوة خطوة ... الويل للرسول أو الزعيم الذى يطمع بالحسنى أن يغير ما بالناس !! ...

الزعيم : كان ينبغى على الأقل أن نلق البذرة الأولى ، ولكننا لم نكن زراعاً ولا منتجين ، لقد كنا رعاة قاعدين .. اكتفينا آخر أيامنا بالجلوس فى الظل الوارف ، نهش تارة على مبادئنا ، ونهش تارة أخرى على حزبنا وجموعنا !...

كاتم السر : كل الرسل كانوا رعاة وإن اختلفت الغنم !...

الزعيم : آه لحججك وبلاغتك واطلاعك على القرآن والتوراة والأناجيل !.. هذه الحجج وهذه البلاغة التى كانت تقنعنا فى الدنيا، هل لها هذه القدرة على إقناع نفوسنا الآن . . . وهى فى تجردها وارتفاعها تحب الصفاء ، ولا تعنى إلا بجواهر الأشياء ؟... إذن أنت ياصديقى تعتقد أننا لم نرتكب فى الدنيا أخطاء !...

كاتم السر : أبداً ! . . .

الزعيم : وأننا لم نكن مقصرين فى شىء ...

كاتم السر : أبداً ... أبداً ...

الزعيم : ولم نكن مسرفين فى شىء ا ...

كاتم السر : أبداً ... أبداً ... أبداً ...

الزعيم : يقولون إن التائبين هم الذين دخلوا الجنة ، وإنى الآن أعجب وأتساءل كيف أدخلوك هنا ؟...

كاتم السر : المسألة بسيطة ... قلت لهم إذا كان زعيمى يستحق أن تدخلوه فأنا معه ، وإن نفسى لمستريحة ، وقد كنا فى الدنيا شرفاء ، وقد صنعنا لوطننا ما استطعنا ، ولكنك إذا أردت أن تذل النفس لله، وأن نتواضع فلنقل هذه الحقيقة وهى : أننا لم نكن على كل حال شراً من غيرنا ا...

٣

المليونير « رئيس الشيوخ » والرياضي « رئيس الحزب »

« كل منهما يتأبط ذراع حورية ويأتي
من طريق ويتقابلان فيترك كل منهما حوريته
ويتعانقان . . . . »

* * *

الأول : أهلا بالرياضي صاحب الجياد ! ...

الثاني : أهلا بالمليونير حارس التحف ! ...

حارس التحف: إني أراك هنا ضيق الصدر ضجِراً . . . إنك لا شك تذكر الدنيا وما كان لك فيها من جياد تجري في السباق ! ...

صاحب الجياد: نعم . . . في سباق « سبورتنج » و « الجزيرة » و « هليوبوليس » ! ...

حارس التحف: « ولاظوغلي » ! ...

صاحب الجياد: إنها كانت حياة جميلة ! ...

حارس التحف: كانت تتوفر فيها على الأقل أسباب التسلية

والترفيه ! . . .

صاحب الجياد: أنت أيضاً كانت لك فى الدنيا مجموعات من التحف لا تقوم بمال ، وصناديق من النفائس الفنية ليست جديرة إلا بمتحف اللوفر ! ...

حارس التحف: خيرها عندى والله صندوق «الديمقراطية» الذى قيل إنى حارسه ، وواضع مفتاحه فى جيبى !...

صاحب الجياد: لا . . . دعك من هذا التشبيه . . . لست أدرى لماذا تذكرنى كلمة صندوق ومفتاح فى الجيب بالأغنية الشعبية التى مطلعها « سرقوا الصندوق يا محمد ، قال مفتاحه فى جيبى ! ... »

حارس التحف: ألا يعجبك أن أشبه الديمقراطية بتحفة نادرة داخل صندوق . . . أو أنه لا يعجبك أن أضع أنا مفتاح الصندوق فى جيبى ؟!...

صاحب الجياد: أنت حر فى تشبيه منصتك بصندوق ، ومسألة وضع المفتاح فى الجيب أو فى مكان آخر لا تهمنى ... أنا أيضاً كانت لى منصة أو صندوق

إذا شئت ، لكنى لم أفكر يوماً فى السؤال عن مفتاح هذا الصندوق ، ولم أحاول قط فتحه لأرى ما فيه ! ..

حارس التحف: ومن قال لك إنه ينبغى لنا أن نفتح صناديقنا لنرى ما فيها ؟ ... لقد كان يقال إن فى هذا الصندوق جوهرة علىّ أن أحرسها ، وهذا يكفى ! ...

صاحب الجياد: وهذا يكفى ؟! ... لطالما كنت أشك فى الدنيا فى مقدار علمك الحقيقى بما كنت تقتنيه من تحف فنية ! ... هل كنت إخصائياً إلى هذا الحد ؟ ...

حارس التحف: لا أستطيع أن أجيب بإسهاب رجلاً لا يفهم فى الفن، ولكنى أقول لك إن الإحساس بالشىء الجميل هو المهم، وإن كلمة إخصائى أو خبير ليس لها أهمية كبرى فى الفنون ! ... ذوّاقةُ الفن ليس مثل مُروّضِ الجياد يحتاج إلى خبرة واضحة الحدود ؛ كذلك « المبادىء » الجميلة ؛ الديمقراطية مثلا ، الإحساس بجمالها والافتخار

بحراستها ، لهما فى ذاتهما كل القيمة ! ...

صاحب الجياد : أوَ تظن أن من الواجب أن يكون الإنسان محباً للفنون الجميلة كى يحب الديمقراطية ؟...

حارس التحف: لم أقل ذلك . . . أنت أيضاً تستطيع أن تحبها ، خصوصاً أنك كنت تحت رايتها تجرى جيادَك !.

صاحب الجياد: إنى أعتقد أن الديمقراطية هى روح الرياضة ...

حارس التحف: أنا لا أدعى أنى أفهم شيئاً فى الرياضة ... ولكنى أعتقد أن الروح الرياضى هو أن تقف على المنصة المشرفة على السباق بمفردك ، والمنظار المكبر فى يدك لتتذوق ما يجرى أمامك بنظرة حرة طليقة... كم يا ترى يكلفك اقتناء جيادك وتضميرها وتمرينها ، والمحافظـــة على صحتها وسلامتها ، والإصغاء إلى رغبات أولياء الشـــأن فى أمر إشراكها أو عدم إشراكها فى الأشواط ؟ ... كل هذه تفاهات كان أولى بك أن تتخلص منها ليكون لك الحكم المنزه الصحيح على ما يحدث

في الميدان ! ...

صاحب الجياد: اسمح لي أن أقول لك إنك تنظر إلى المسألة نظرة هاوٍ ، يمسك بالمنظار ليتأمل لوحة فنية ! ... كلا يا سيدي إني لست من الهواة . . . إني لم أولد صاحب «ملايين» ليحلو لي آخر الأمر أن أقتني النفائس ، ولو كان من بينها السياسة والديمقراطية ! ... إني رجل بدأت طريقي في الميدان ، فكافحت وضحيت وعرّضت حياتي للخطر ، فلماذا لا أجني اليوم — مثل غيري من أصحاب الجياد — ثمرات الكفاح ولذات الانتصار والاندحار ؟...

إنك حقاً لا تفهم الروح الرياضي ! ... إن الروح الرياضي لا يشابه الروح الفني . . . إنه لا يكتفي فيه بالتأمل البعيد لما يعرض من صور فوق الحيطان ... إنما هو في النزول الفعلي إلى الميدان ! ...

هناك فرق كبير بين لذة المشاهد النزيه
— كما تسميه — ولذة صاحب الجياد التى تجرى
وتكسب وتخسر ... إنك لا يمكنك أن تدرك
هذه اللذة إلا إذا اقتنيت جياداً ! ...

حارس التحف: لا ياعزيزى ؛ إنى أفضل اقتناء اللوحات الزيتية،
فإن قيمتها تزداد مع الزمن ، أما قيمة جيادك
فى المستقبل ... كم أرثى لرأس مالك يا صديقى
إذا كنت قد وضعته كله فى هذه الجياد !...

صاحب الجياد: رأس مال الرياضى هو الحاضر... كلمة «المستقبل»
لا وجود لها فى قاموس رجل الرياضة !...

حارس التحف: على العكس ، « المستقبل » كل شىء عند رجل
الفن ... قيم الأعمال الفنية إنما تقاس بأثمانها
فى المستقبل ، ورجل الفن الحاذق هو الذى
يشترى لوحة زهيدة الثمن ، وهو يعلم أن قيمتها
ستزداد فى الغد أضعافاً مضاعفة ...

صاحب الجياد: يظهر أنك فعلت ذلك عند اقتناء تلك المنصة أو

« الصندوق » كما تسميه !...

حارس التحف: لا تنس أن هنالك لحظات يشترى فيها الإنسان تحفة في غير اكتراث ، فإذا الظروف تجعل لها أهمية كبرى ! ...

صاحب الجياد: صدقت في ذلك ، لقد كان يحدث أحياناً أن يقتنى الإنسان جياداً رخيصة يعلم أنها لن تدخل أو تصلح للسباق، فإذا ظروف تطرأ فتتغير الوضع، كأن يسحب طرف آخر جياده من بعض الأشواط لسبب من الأسباب أو أن يحجز جواد عن السبق في آخر لحظة ، فينفسح بذلك المجال أمام الجياد الرخيصة !...

حارس التحف: قل لي أيها الصديق : أخشى أن يؤلمك تقليب هذه الذكريات ... نحن في هذه الجنة لا نجد تسلية غير هؤلاء الحور ، وقد سئمناهن . . . إني فيما يتعلق بشخصي أتوق إلى ذكريات الدنيا . . . لست أكتمك أني أنفق وقتاً كبيراً هنا في

تذكرها ... على أن نظرتى إلى الماضى قد تغيرت،
وينبغى لها أن تتغير ! ... لقد تركنا تلك الدنيا
بحلوها ومرها ، لماذا لا ننظر إليها الآن نظرة
النقد المجرد النزيه ؟ ... نظرة المتأمل لوحة معلقة
على جدار بعيد ! ...

صاحب الجياد: أو نظرة المتفرج على شوط لم يراهن فيه على
جواد . . .

حارس التحف: نعم ! . . . نظرة بريئة خالصة تحيط بأعمالنا
ومحاسننا وعيوبنا إحاطة شاملة . . . إن روح
النقد كانت تنقصنا فى الدنيا لأسباب كثيرة
لا داعى لذكرها ... أما الآن فاذا يمنعنا من نقد
أنفسنا بأنفسنا ؟ ! ...

صاحب الجياد: هذا الشعور قد ساورنى أنا أيضاً هنا ، ولطالما
ساءلت نفسى : إذا عدنا مرة أخرى إلى الدنيا ،
هل نتصرف عين التصرف الماضى ؟ ... أو أننا
نستفيد من التجربة ، فنصنع خيراً مما كنا نصنع

أول مرة !...

حارس التحف: قل أولا ، هل ننظر إلى الأشياء المهمة نظرة جدية أكثر مما كنا نفعل فى عهدنا الأول ؟... اعترف أننا كنا قوماً مترفين ، نأخذ كل شيء على أنه جزء مكمل لحياة الترف التى وضعتنا فيها الأقدار، فالسياسة مثلاً كانت عندك نوعاً من الألعاب الرياضية ، وكانت عندى نوعاً من . . .

صاحب الجياد: من الفنون الجميلة !...

حارس التحف: لست أنكر . . . ومن السخف وضعف الرأى أن يرفض الإنسان المهذب تحليل نفسه، خصوصاً الآن . . . لست أريد أن أخفى عنك أنى لم أجد فرقاً كبيراً بين اللحظات التى كنت أجلس فيها بمنزلى أتأمل لوحات « هوجارت » الهزلية عن الأخلاق والعوائد الإنجليزية فى القرن الثامن عشر ، وبين اللحظات التى كنت أجلس فيها على منصتى أنظر إلى ما يحـــدث أمامى من مناظر

المساجلات والمجادلات والمشاغبات ! ... ولقد
كنت أتأمل إشارات الخطباء فى مواقفهم الخطابية
فأتذكر نقد النقاد للوحات «جروز» فى إغراقها
المسرحى ، وأشاهد الهرج والمرج الذى يقع
أحياناً أمامى فأتذكر لوحة « المهرجان الفلمنكى »
بريشة « روبانس » ! ... عين اللذة الفنية دائماً ،
وما كان عملى الرسمى إلا حلقة من سلسلة هوايتى
للفن الجميل كما تقول !...

صاحب الجياد : أنا أيضاً معترف بأنى كنت أحياناً أنزل من
الطائرة أو قطار الإسكندرية بعد حضور السباق،
فأذهب تواً إلى الجلسة البرلمانية، وكأن العمليتين
شىء واحد!... شعورى هو عين الشعور، ومتعتى
الرياضية هى عين المتعة مستمرة فى شكل آخر ...
ولكن ينبغى أن ننصف أنفسنا فنقول : إن
رجال السياسة كانوا دائماً كذلك . . . إن « لويد
جورج » و « بلدوين » و « تشمبرلين » كانوا

يأتون من حلبة « الجولف » مباشرة إلى مجلس العموم ، وكأنهم فى الحالين يلعبون لعبة واحدة ! ... إن السياسة لعبة رياضية لا أكثر ولا أقل ! ...

حارس التحف : عدنا إلى التماس الأعذار وتبرير المواقف ؟... ومع ذلك من قال لك إن « لويد جورج » و « تشمبرلاين » و « بلدوين » كانوا على حق فيما كانوا يفعلون، ولماذا لا تقول إن هذه النظرة إلى السياسة باعتبارها لعبة رياضية فى أيدى الساسة هى التى هزت صرح النظام الديمقراطى فى أوروبا، وجعلت تلك الشعوب تلهو وقت الجد وتتثاءب حيث كان ينبغى التيقظ ؟!... وإذا كانت انجلترا القوية الغنية بعد أن بلغت بأداة السياسة العتيدة أوجها قد سمحت لنفسها أن تجعل « السياسة » فى زمن السلام والرخاء فرعاً من لعبة «الجولف» فهل يحق لمصر الناشئة أن تلهو بهذه الأداة وهى

لم تكن قد استخدمتها بعد فى سبيل النهوض الفعلى ؟ . . .

صاحب الجياد: صدقت ، قولك هذا حق . . . لا أستطيع أن أعترض على كلمة واحدة مما تقول ، وأنا رجل كما تعرف أحب الحق لذاته ، وأحب الإصغاء إلى كل كلمة صائبة ... تلك كانت إحدى المتع التى طالما لذت لى فى الدنيا إذا كنت تذكر !... الحق هو ما تقول ، ولقد جال بخاطرى من قبل كل ماذكرت أنت الآن،ولكن منطقى فى تتبع الأشياء يخالف منطقك بعض الشىء ؛ لأنى كنت رجلا مكافحاً،أما أنت فكنت رجلا مشاهداً!... إنك تستطيع أن تشاهد وتحلل وتنتقد...أما أنا فماذا كنت تريد منى أن أصنع على مائدة السياسة غير ما صنعت ؟ ... تلك كانت قواعد اللعب ، ولقد لعبت لعبتى كما ينبغى أن تُلعب ، بشرف وأمانة وإخلاص !!...

حارس التحف: أإن تكف عن اعتبارها لعبة ؟ . . .

صاحب الجياد: لا تؤاخذنى ! ... لا أستطيع أن أسميها غير ذلك... ألم يكن للنظام البرلمانى أصول وقواعد ؟... لقد أدينا واجبنا فى حدود هذه القواعد والأصول ؛ فماذا تريد أكثر من ذلك ؟... إنى أفهم مع ذلك مرادك . . . إنك تتكلم عن أخذ الأشياء بعين الجـــد ! ... أوَ نسيت أنى فى يوم من الأيام عرّضت حياتى للخطر ؟ . . . أظنك توافقنى على أن تقديم العنق إلى المشنقة يعتبر على الأقل أمراً جِدّياً ! . . . وإنى حتى آخر لحظة من حياتى جاهرت باستعدادى لبذل هذه الحياة !...

حارس التحف : لا أشك فى ذلك . . . ولكنى أعتقد أن الوطن كان يطلب منا أحياناً شيئاً أقل كثيراً من بذل الحياة ! . . .

صاحب الجياد: أدرك قصدك ، ربما كنت مصيباً . . . ولكن ، لا تنس أننا كنا نعمل داخل إطار خاص !!...

إن من السهل أن نخرج من الحياة كلها ، وليس من السهل أن نخرج من الإطار الذى دعتنا الظروف إلى اتخاذ مكاننا فيه ، والتحرك فى حدوده ! ...

حارس التحف: إذن لقد كنا جميعاً صوراً تتحرك على القماش داخل إطار ! ... ما أبدعها لوحة لفنان عظيم ! ... ترى من هذا الفنان ؟! ...

صاحب الجياد: ربما كان ذلك المخلوق الذى قيل إنه يرتدى ثوباً فضفاضا ! ...

حارس التحف: مهما يكن من أمر ، فإنى أعتقد أنه كان يجب تصوير أنفسنا وتحليل أخطائنا حتى نستطيع الإفادة من التجربة ... لا تنس أننا كنا فى مبدإ الطريق السياسى ، وكانت كل أخطائنا نتيجة طبيعية لا بد منها ! ...

صاحب الجياد: نعم ... يجب أن نتأمل أخطاءنا فى وضوح ، لكن ... فلنعط أنفسنا الوقت للتأمل ... دعنى

أفكر أسبوعين أو ثلاثة قبل أن نتقابل مرة أخرى ها هنا لاستئناف الحديث ... حذار من الارتجال فى الحكم على أنفسنا وعلى الأشياء !... حسبنا ما جرّته سياسة الارتجال التى اتبعتها أكثر حكوماتنا الغابرة !...

حارس التحف : إلى اللقاء إذن ... لقد جعلنا السيدات ينتظرن أكثر مما ينبغى !...

الحور : أما كفاكما ثرثرة ؟!...

صاحب الجياد: إن الثرثرة أحياناً فيها ترويح لطيف !...

حارس التحف : بل قل إنها خير تراث جلبناه من الحياة الدنيا ! . . .

٤

« المهندس » و « المفتى » فى الحكم

« رجلان أنيقان وسيمان يتقابلان ، فيترك
كل منهما حوريته ويتعانقان . . . . »

* * *

الأول : أهلا بالمفتى ! ...

الثانى : أهلا بالمهندس !...

المهندس : آه . . . لا تذكرنى بهذه الكلمة ! . . . لو كنت أعلم فى الدنيا أن السياسة والحكم هما مصيرى لما تجشمت ونلت أكبر إجازة علمية فى الهندسة !... أنت أيضاً يا من قضيت أكثر حياتك متفقهاً فى القانون ، وقعت آخر الأمر فيما كنت تكافح دائماً لتجنبه ؟! ... وقعت أيها العلامة النافع وصرت سياسياً ؟!...

المفتى : أنت الذى أوقعنى !... لكأنما عز عليك أن أنجو بنفسى دونك !...

المهندس : إنها كانت نهاية مؤلمة لنبوغنا العلمى !...

المفتى : شجرة الحكم فى الدنيا كانت هى التفاحة الملعونة فى جنة العلم والنبوغ ! ... جميعنا مع الأسف أكل منها ! ...

المهندس : ما علينا ... مضى كل ذلك ... فلنتحدث فى جنتنا الحاضرة !... أين كنت حتى هذه الساعة ؟...

المفتى : كنت فى عمل متواصل ...

المهندس : عمل ؟... متصل هاهنا أيضاً ؟...

المفتى : نعم ... لقـــد اختلف اثنان من أصحاب الرفعة على حورية ، فاستشارانى كى أفتى لهما ...

المهندس : الفتـوى وراءك حتى فى الجنة ؟!...

المفتى : ليس لى صناعة غيرها تلذّ لى !...

المهندس : إنى أغبطك ،فقد استطعت أن تباشر حتى فى هذا المكان شيئاً من أعمالك فى الدنيا ، أما أنا ... فوا أسفاه !... أتراهم يسمحون لى أن أبنى على نهر الكوثر خزاناً ؟. هذا طبعاً مستحيل !... كذلك لن أستطيع أن أكون هنا رئيس وزارة !!...

المفتى : ولا مجرد حاكم عسكرى !... على ذكر الحاكم العسكرى يخيل إلىّ أنك فى الدنيا كنت قريب الشبه من « نابليون » !...

المهندس : كنت أشبه « نابليون » فى ماذا ؟...

المفتى : فى أنفته، وفى غطرسته، وفى مشيته العسكرية!!...

المهندس : فقط ؟ . . .

المفتى : على كل حال أنت كنت «نابليون» بغير عبقرية وبغير مواقع حربية ! ...

المهندس : وما قيمة « نابليون » بغير مواقع حربية ، وبغير عبقرية ؟ ! . . .

المفتى : لست أدرى ! ...

المهندس : على أيه حال ، كلانا كان حقيقة رجلا غير حزبى !...

المفتى : نعم . . . لم تكن رجلا حزبيا . . . غيرك كان يصنع الأحزاب ، ويشقى ويجهد فى تأليفها ، وتأتى أنت فتحكم بها ! . . .

المهندس : أوَ ليس هذا خيراً من أن أغمر نفسى فى الحزبية ؟...

إنى لست مع الماء الساخن ولا مع الماء البارد!... إنى...

المفتى : أنت خلاّط «الدش» الذى يخلط الساخن بالبارد ، ويعمل بهما ، ويلائم بينهما الملاءمة التى يقتضيها الطقس السياسى ! . . .

المهندس : أنا «خلاط دش» ؟ ! . . .

المفتى : هذه الصورة لا تعجبك ؟ . . . لا تتغطرس ولا تغضب !... أتعرف خزان أسوان ؟ ...

المهندس : طبعاً أعرفه !...

المفتى : إنك كنت تنظر إلى الأحزاب ، كأنها خزان أسوان ! . . . تفتح من عيونها وتغلق العدد اللازم لمقدار الحاجة ! ... إنك فى عملك السياسى كنت أيضاً مهندساً دون أن تشعر ، ويشعر الجميع !...

المهندس : يا لك من قدير أيها المفتى ! . . . تخرج من جرابك أشكالا من الصور وألواناً ! . . . أنت أيضاً كنت «خلاط دش» لا للأحزاب ولكن للمبادىء ، تخلط ساخنها وباردها ، وتلائم بين أضدادها

ومتناقضاتها عند اللزوم ؛ لتخرج الرأى أو المبدأ
أو الفتوى التى تناسب درجة الحرارة السياسية
فى الظرف الطارىء ! . . .

المفتى : اتفقنا ... إذن نحن من معدن واحد ! ...

المهندس : ولذلك أمكن «اللحام»، وارتبطنا فى العمل والمسئولية
على أحسن ما يكون الارتباط والانسجام ! ...

المفتى : هذا صحيح ولقد اشتركنا حتى فى العيوب ! . . .

المهندس : العيوب ؟ . . .

المفتى : هدىء روعك . . . بالطبع كانت لنا عيوب كرجال
سياسيين... أولها أننا بطبيعتنا لم نكن رجال جماهير ...
وتلك صفة ضرورية أحياناً لرجال السياسة، هل تتصور
انى كنت أستطيع أنا مثلا أن أخاطب الجماهير باللغة
التى تفهمها ؟... وأواجهها بالأساليب التى يحذقها ساسة
الجماهير ؟ ! . . . إن أشق ساعة على نفسى كانت تلك
الساعة التى أضطر فيها إلى اعتلاء منصة « البرلمان »
لأواجه الناس أو أسحر الناس !... ماذا يكون المصير

لو اضطررت أنا أو أنت إلى تأليف حزب ! ؟ ...

المهندس : لا يا صـــديقى العزيز ... وهل ألف « نابليون » حزباً ؟... نحن لا ينبغى أن نملك أحزاباً !...

المفتى : هذا هو الرأى ... لا نملك ; بل نستعير ! ... بذلك لا نتكلف عبء إنشاء ولا نتحمل مسئولية صيانة أو تلف أدبى ! ... « قانون الإعارة والتأجير » ! ... هذا هو خير الحلول الفقهية فى العصر الأخير !...

المهندس : بينك وبين « روزفلت » شبه غريب !...

المفتى : كالشبه الذى بينك وبين « نابليون » ! ...

المهندس : لا تمزح ... إنى فيما يختص بك أتكلم كلاما جدياً ...

المفتى : شكراً !! ...

المهندس : أما فيما يختص بى فإنى أرتاب لسبب واحد : هو أنى بطبعى وروحى رجل ديمقراطى ... لم أكن أعرف مدى هذه الطبيعة فى نفسى حتى تسلمت مقاليد الحكم ، فإذا أنا حريص كل الحرص على عدم الانزلاق إلى الاستبداد ، حتى فى ظروف قد رُؤِىَ فيها استعمال

الشدة ... لقد اجتزنا كما تذكر أزمات مخيفة هددت البلاد بالمجاعة ، وكانت موقعة المواقع هى : مكافحة الغلاء ، ومحاربة المستغلين ، وتوفير الغذاء ! . . . فلم تقبل نفسى فكرة نصب المدافع فى الشوارع ؛ كما فعل « نابليون » فى سبيل إقرار النظام !... كلا !... إن سيف الحاكم العسكرى فى يدى كان يهتز خوفا . . . لست أريد الآن تبرير هذا الموقف ؛ فقد يرى غيرى أن إنقاذ المجموع يوجب أحياناً الشدة . . . ولكن تلك طبيعتى ... انقدها كما شاء لك النقد ! ! ...

المفتى : حقيقة مسألة تنظيم التموين فى البلاد كانت أخطر المسائل ، وقد عجزتَ العجز الفاضح عن معالجتها ؛ فقد بلغ الحال حداً أصبح فيه من معه مال هو الذى يأكل ، أما الآخرون وهم الأغلبية . . .

المهندس : لقد أُخذنا على غِرة ، ولم أشأ أن أستعمل القوة !...

المفتى : نعم لقد كنت ديمقراطياً أكثر مما ظننا فيك وظننت فى نفسك ! . . . وكان سيفك سيفاً « ديمقراطياً » ؛

على الرغم من إرادتك ! . . . سيف لامع برّاق ،
ولكن حده من المطاط ! . . .

المهندس : إنى لا أبرّئ نفسى ! . . .

المفتى : لا أحد يطلب إليك أن تغير ما بنفسك !... تلك كانت
طبيعتك... وبها عالجت ما واجهك من مشكلات!...

المهندس : وهل نجحنا ؟ . . .

المفتى : ليس لنا نحن أن نجيب عن هذا السؤال... كل ما نجيب
به عن أنفسنا هو أننا عملنا وجهدنا جهد الطاقة ،
وأكثر من الطاقة أحياناً . . . وإنى لأذكر عدد
ساعات عملك اليومى ! . . .

المهندس : ولماذا لا تذكر ساعات عملك المرهق أنت أيضاً
أيها المتواضع ؟...

المفتى : لم أعتد الحديث عن ذلك ، ولكنى أردت أن أريح
ضميرك قليلا ... على أنى من جهة أخرى لا أريد أن
أنفى أننا ارتكبنا أخطاء . . كل من يعمل يخطىء !.

المهندس : ولهذا كنت أرحب بالنقد : ألا تذكر ؟... لقد كنت

أصغى إلى كل من يستطيع أن يبين لى الخطأ بروح مشبع بالرغبة فى الإصـــلاح ، والبعد عن التحامل والتجريح !... ذلك أن الذى يقول لى : «لقد أخطأت فى كذا وكذا » ، إنما يســـدى إلىّ معونة خليقة بالتقدير . . .

المفتى : لقد خالفت إذن فى هـذا « نابليون » ، فقد اضطهد « مدام دى ستايل » و « بنجامان كونستان » وغيرهما من أعضاء الحزب الحر ، لأنهم سمحوا لأنفسهم بنقده ! . . .

المهندس : فى هذا أنا أخالف « نابليون » من غير شك !... هل تذكر أنى اضطهدت أحداً أراد نقدى ؟...

المفتى : هنالك وجه خلاف آخر بينك وبين « نابليون»... كان «نابليون» حقاً روح هدم ، ولم تكن أنت روح هدم ، غير أنه كان إلى جانب ذلك روح خلق ؛ فهو قد أنشأ كثيراً من المؤسسات ، وقام بكثير من الإصلاحات ، حتى أيام «موسكو» المصيبة كان يفكر

خلالها فى مشروعات حيوية تنهض بلاده ؛ بل إنه فى أيام مصر المروعة بعد أن أحرق أسطوله ، وانحبس فى وادى النيل ، وانقطعت صلته بوطنه ؛ لم يقنط ولم ينم ، بل تيقظ فيه روح الخالق ، فنشط ينشىء مصر نشأة أخرى !...

المهندس : تريد أن تقول بالاختصار : إن روح الخالق ينقصنى ... فهل تملك أنت على الأقل هذا الروح ؟...

المفتى : لم أقل يوماً إنى خالق ... كل عملى وكل مهمتى كانت مجرد ترقيع وتبرير ما يخلقه الآخرون ...

« الحور يقبلن صائحات ... ... »

الحور : أما فرغتما بعد ؟...

المفتى : نحن نتكلم فى العمل ! ...

الحور : العمل ... لماذا تفكر دائماً فى العمل ؟...

المفتى : لا أستطيع الحياة بغيره !... حبذا لو كان لديكن عمل لى ... إنكن تستطعن ذلك بغير شك ؟!...

الحور : كيف ؟ . . .

المفتى : اختلفن ... اختلفن فيما بينكن على مبدإ وأنا أفتى لكن . . .

الحور : مبدأ من أى نوع ؟ ...

المفتى : أى مبدإ ؟ ... أى مبدإ ؟ ...

المهندس : سبحان الله أيها المفتى المتحرق على فتوى ! ... أنا أيضا ماذا يمنعنى من أن أجمع رهطاً من الحور وأحكمهن حكما عسكرياً ؟! . .

الحور : ويلاه ! . . . ويلاه ! . . .

المفتى : لا تخشين ولا تنفرن ! ... إن ظاهره الشدة ، ولكنه فى الحقيقة رقيق ظريف ... اقبلن حكمه العسكرى ... إنه سيكون مبطناً بالسندس الأخضر ! ... وسيفه العسكرى ، سيكون من خشب أشجار الفردوس ! ... إنه العجز مطليّا بقشرة القوة ، والضعف لابساً فروة البطش . . .

٥

« الخواجة » فى جنة عملائه

« سيدنا « رضوان » عليه السلام جالس
فى قصره بالجنـــة ، والخواجة بين يديه فى
خشوع ... ... »

* * *

رضوان : كيف دخلت جنة المسلمين ؟...

الخواجة : دخلتُ مع رجال السياسة المصريين.. إنى لا أستطيع البعد عنهم ، ولا يستطيعون البعد عنى... لقد تمصرت، وسميت ابنى اسماً مصرياً ، ولو احتاج الأمر فلأقل لك إنى أسلمت !...

رضوان : عجبـــاً ! . . .

الخواجة : إنه الحب ! . . .

رضوان : حب أولئك الساسة المصريين !...

الخواجة : إنهم كانوا فى الدنيا كل سلوتى وكل هوايتى ، إن

صيد البط فى «أكياد» هواية كنت أستطيع أن أمارسها فى أى مكان ... أما هؤلاء الساسة فلا يوجد مثلهم إلا فى مصر ؛ لذلك لم أستطع قط مفارقة مصر، ولقد دخلوا الجنة فدعوت الله أن يدخلنى معهم ...

رضوان : أتجد عشرتهم لذيذة إلى هذا الحد ؟...

الخواجة : ومسلية للغاية ... تصور ... ما ان تقابلنا هنا حتى التفوا حولى ، وأقاموا لى حفلة تكريم ، اجتمعوا كلهم فيها على اختلاف نزعاتهم؛ وهم الذين لا يجتمعون، واتحدوا مؤقتاً ؛ وهم الذين لا يتحدون ، وشربوا جميعاً نخبي من نهر «الكوثر» ، ثم تنازعوا صحبتى ، وتهافتوا على الإنفراد بى !... وتجاذبوا أذنى ليملئوها...

رضوان : ماذا ؟ . . .

الخواجة : نقداً ولذعاً من بعضهم لبعض !...

رضوان : حتى هنا ؟ . . .

الخواجة : وحتى هنا يطمعون فى الحكم ! ...

رضوان : ما شاء الله !... ما هذا الكلام الذى تقوله يا هذا ؟...

الخواجة : انتظر ياسيدنا الملاك الرحيم ، أرجو منك أن تصغى
إلىّ بصبر حتى أنتهى من عرض المهمة الرسمية التى
أوفدونى بها ... وبعدئذ أتلقى منكم التبليغ ! ...

رضوان : أأنت الآن موفد بمهمة رسمية ؟...

الخواجة : طبعاً ... وهل كنت أسمح لنفسى بإقلاق راحتكم ،
وإضاعة وقتكم ، وصرفكم عن أعمالكم ، لو لم أكن
قادماً لأعرض طلبات معينة بالذات !...

رضوان : طلبات ؟ ! . . .

الخواجة : لا تخش شيئاً . . . إنها عين الطلبات . . . أقصد عين
الطلبات التى اعتدت فى الدنيا أن أتلقاها ... لهذا
فرحوا بى هنا ، ورأونى المختص بالقيام بهذه المهمة
هنا أيضاً ! ...

رضوان : حتى الساعة لست أفهم شيئاً مما تريد !...

الخواجة : المسألة بسيطة ... يريدون كراسى الحكم ! ...

رضوان : أين ذلك ؟...

الخواجة : هنا فى الجنة وطلباتهم متواضعة جداً ويمكن تحقيقها!؟.

رضوان : يمكن تحقيقها ؟!... يا للغرابة !...

الخواجة : اسمحوا لهم بركن صغير فى الجنة يلعبون فيه ... أعنى يباشرون فيه ما يريدون من مظاهر الحكم !...

رضوان : ماهذا الهُراء يا هذا؟... أليس الحكم يتطلب وجود محكومين ؟ . . .

الخواجة : بالضبط !! . . .

رضوان : وأين نجد لهم هنا المحكومين ؟ ...

الخواجة : الأمر سهل جداً ، نطلب إلى كل الموجودين بالجنة من أهل مصر الغابرين أن ينتقلوا إلى ذلك الركن ؛ ليكونوا هم الشعب الذى يحكمه هؤلاء ؟...

رضوان : وأين هو المجنون — من المصريين الغابرين — الذى يقبل فى الجنة أن يحكمه هؤلاء ، بعد أن أنقذه الله منهم فى الدنيا ! ...

الخواجة : الحقيقة ، هنا المعضلة ! ...

رضوان : وإذا فرضنا جدلا أنكم وجدتم عدداً كافياً من المجانين الذين يقبلون أن يعيشوا فى الجنة أيضاً تحت حكم من

ذكرت ، فما هو نوع الحكومة التي ستؤلف ،
وما هو برنامجها ؟ . . .

الخواجة : نوع الحكومة ؟... ديمقراطية طبعاً ...

رضوان : ديمقراطية على طريقة مصر ؟!...

الخواجة : طبعـــاً . . .

رضوان : وبرنامجها ؟ . . .

الخواجة : برنامجها ؟!... آه ... هذا ما كنت أخشى أن تسألوني
عنه . . . لقد قلت لك يا سيدنا « رضوان » إن
المطلوب هو أن يصلوا إلى الحكم ...

رضوان : مفهوم ... قلت لي هـــذا ألف مرة ... يصلون إلى
الحكم لماذا ؟... لماذا ؟...

الخواجة : لم يقل لي أحد منهم قط لماذا ؟... لا في الدنيا ولا في
الآخرة ! . . . طول عشرتي لهم هناك أو هنا ،
وما سمعت إلا قول كل منهم إنه الأحق من غيره
دائماً بالوصول إلى الحكم !...

رضوان : نعم ... نعم ... ولكنني أسألك لماذا يريد كل منهم

الوصول إلى هذا الشيء ؟ ...

الخواجة : لايوجد لماذا ؟... ليصل إليه... هذا كل مافى الأمر... إنها البداهة... إنه شيء طبيعى جداً... وإنهم يطلبونه بمنتهى البساطة ... إلى حد لم يخطر لى معه أن أسألهم هذا السؤال الذى تسألنى إياه الآن !...

رضوان : ألم يقل لك أحدهم مثلا إنه يريد الحكم ليجعل المحكومين أحسن حالا مما كانوا عليه ... وإنه وضع لذلك الغرض خطة مفصلة محكمة ؛ أنفق فى وضعها جهداً ووقتاً وثمرة تجارب وخبرة خبراء ، مما يجعلها يسيرة التنفيذ ، وإن الشيء الوحيد الذى ينقصه لتحقيقها هو السلطة؟...

الخواجة : أظن لم يقل ذلك أحد ! . . .

رضوان : وما السبب ؟ . . .

الخواجة : السبب ؟... لعله عدم وجود الوقت الذى يضعون فيه هذه الخطط أو البرامج الإصلاحية ! ...

رضوان : عجباً ! . . . وماذا كانوا يصنعون طول الوقت الذى

ينتظرون فيه الكراسي ؟ ...

الخواجة : كانوا ينفقون هذا الوقت في الشيء المعقول ، وهو العمل على إسقاط مَنْ في الكراسي ليجلسوا مكانهم ! ...

رضوان : أتسمي هذا شيئاً معقولا ؟ ...

الخواجة : طبعاً ... إذا كان هدفي مثلا الوصول إلى مقعد مشغول ، ألا ينبغي أن أنفق وقتي في إخلاء هذا المقعد ؟ ... إنهم كما ترى لم يشذوا عن المنطق ! ...

رضوان : ذلك حقاً هو المنطق إذا كان الأمر يتعلق بأطفال يتزاحمون على مقعد، فهم عندئذ يمضون حقيقة وقتهم كله في دفع بعضهم بعضاً بالمناكب والصياح والتطاحن والتشاجر ... ولكنني كنت أفهم أن تكون المنافسة على الحكم بين رجال السياسة وسائل غير هذه الوسائل ... كنت أفهم أن يكون تدافعهم بالبرامج والخطط ... لا بالطعن والسباب ... هل كانت المنازعات خاصة بالبرامج والخطط التي وضعها كل

فريق لمصلحة المحكومين ؟ ...

الخواجة : البرامج والخطط لمصلحة المحكومين ؟... وما دخلها هنا ؟... هذا شيء لا علاقة له مطلقاً بمسألة الحكم ! ...

رضوان : عجباً ! ... تريد أن تقول إن هؤلاء الذين يطلبون الحكم ليسوا بمصلحين ؟ ...

الخواجة : حاشا لله ! . . . بل إنهم لمن المصلحين . . . فهم إذا جاءوا الحكم أصلحوا من الفور أحوالهم وأحوال المقربين إليهم ! ...

رضوان : فقط ؟ . . .

الخواجة : إن مدة الحكم قصيرة في الغالب ... فهي لا تكفي عادة إلا للإصلاح في نطاق تلك الدائرة ! ...

رضوان : وبقية المحكومين من الشعب ؟...

الخواجة : الشعب قد اعتاد الصبر ؛ لأنه لو انتظر دوره في الإصلاح لكان عليه ولا شك أن ينتظر عشرات الأعوام ! . . .

رضوان : وهذا الشعب هو الذي كان ينتخب حكامه هؤلاء ؟...

الخواجة : طبعاً ... وكان عليه أن ينتخب من بينهم . . .

رضوان : وماذا كان الشعب يقول عنهم ؟

الخواجة : لست أدرى . . . ولكنى أذكر أنى كنت أمر يوماً بجماعة من الفلاحين أثناء صيدى البط فقلت لهم : « مع أى الأحزاب أنتم ... » فهزوا جميعاً رءوسهم ، وأشاروا إشارة معناها : « لا مع هذا ولا مع ذاك » ، وتشجع أحـــدهم وقال « إحنا مع حزب رغيف العيش » ، فقلت لهم باسماً : إن « رغيف العيش » لم يؤلف بعد حزباً !... لأن الذين يؤلفون الأحزاب هم الباشوات !...

رضوان : ولماذا لم تنصح لأصدقائك هؤلاء أن يفكروا قليلا فى ناخبيهم المساكين ، قبل أن يفكروا فى أنفسهم ، أو على الأقل مثلما يفكرون فى مصالحهم ومصالح ذويهم ! . . .

الخواجة : ليس من حقى أن أنصح لهم ... ولا يجوز لى التدخل فى شئونهم الداخلية !...

رضوان : ولكنك كنت تفعل أحيانا ! . . .

الخواجة : إذا كان الأمر يعنيني ، ويعنى دولتى ، ويمس مصلحتنا الخاصة . . . أنا كذلك ، ولا تؤاخذنى كان علىّ أن أفكر فى مصالحى الخصوصية قبل كل شىء ...

رضوان : أنت أيضاً ؟ . . .

الخواجة : ما دخلى فى الأمر ؟... لست أنا الذى كان يتقدم إلى الانتخابات ، ولا أنا الذى كان يخطب فى الجوع ؛ ليظفر بالأصوات ، ولا أنا على كل حال المنوط به إصلاح أحوال الحكام والمحكومين ... لقد كنت قرأت فى القرآن آية بليغة طالما تدبرتها ملياً ، وأنا أنظر إلى كل هذا :

«إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم!»

رضوان : وهل غيروا ما بأنفسهم ؟...

الخواجة : لست أدرى ... يخيل إلىّ أن الداء القديم مازال فيهم كامنا ؛ فهم يريدون كلهم أن يكونوا زعماء ، ويقولون كلهم إنهم عظماء ... وكل منهم كان يقول : أنا فقط

وليغرق الباقون ... وكان الاتحاد بينهم كالاتحاد بين
النار والماء والهواء ! ... وإذا خجلوا من الظروف
التى تقضى أحياناً باتحادهم ، أصر كل منهم على الاتحاد
بشروطه هو !! .. أى لا اتحاد على الإطلاق ! ...
ولو احترق الشعب أمام أعينهم لما ضحى أحدهم بشرط
واحد من شروطه أبداً ، فالتضحية كلمة يستعملونها
فقط للتمثيل والغناء فى المواقف الحماسية، يوم يريدون
التأثير على عقل الشعب الساذج ، ولكنهم فى أعماق
نفوسهم لا يقبلون أن يضحوا من أجله بشىء يسير
من كبريائهم الزائف وعظمتهم الجوفاء ! ...

رضوان : اللهم لقد استحق الجنة ذلك الشعب المسكين ! ...

الخواجة : من غير شك ! . . .

رضوان : ومع ذلك تأتى إلىّ تطلب أن ترده اليوم من جديد
إلى حكم هؤلاء ! ...

الخواجة : لعلهم هنا يصلحون ... إنها على كل حال تجربة ! ...

رضوان : تجربة ؟... إنى لا أقبل أن يجرب فى هذا الشعب حكم هؤلاء مرة أخرى ، بعد أن جربوا فى الدنيا مرات ! . . .

الخواجة : بالله لا تجعلنى أفشل فى مهمتى ، فإنى أريد أن أبقى بينهم دائماً ! . . .

رضوان : من أجل تسليتك أنت تريد منى أن ...

الخواجة : استبق على الأقل باب المفاوضات مفتوحا ! ..

رضوان : لن أقول لك لا ولا نعم ...

الخواجة : فلنتبع سياسة كسب الوقت ... إنها دائماً خير سياسة . . . شكراً لك يا سيدنا رضوان ! . . . شكراً لك ! ..

فى الدنيا

« القطر المصرى ، بخصبه الذهبى ، وتيله
الفضى ، وميدان لاظوغلى . . . . »

١

أوى إلى فراشه البارحة مبكراً ؛ فلقد شعر بيأس شديد بعد قراءة صحف الصباح والمساء ومافيها من ترشيحات مختلفة للوزارة الجديدة التي يسمون في تأليفها ... إنهم لم يذكروا اسمه مرة واحدة ... إن الذي يؤلمه في الأمر هو في الحقيقة وجه ابنته « شوشو » ، وهي تقلب صفحات الجرائد للبحث عبثاً عن اسمه ، ثم كآبة زوجته وهي جالسة كالصنم ، واضعة كفها على خدها ... وإنه ليفهم ما يجول في خاطر كل منهما . . . فزوجته خائفة من شماتة الأعادي ، و « شوشو » حزينة على خطيبها الذي انقطع عن البيت بانقطاع دابر الوزارة التي كان أبوها عضواً فيها ... يزاد على كل ذلك رائحة المغات ، والبخور الذي يتسرب إلى أنفه من حجرة امرأة الطباخ التي على وشك الوضع ... جو خانق ، ونهض « متولى باشا » ؛ ليفتح النافذة ويملأ رئتيه من ذلك الهواء الرطب في تلك الليلة من ليالي الخريف القاتم ، ولم يفده ذلك كثيراً ، ووجد الخلاص في النوم في تلك الساعات الهنيئة الهادئة

التي لا يرجو فيها شيئاً ، ولا ينتظر شيئاً ، ولا يفكر في شيء !...
وذهب إلى سريره ، تحت نظرات زوجته الصامتة ، وأغمض عينيه وراح في سبات عميق لذيذ !!...

لم يطل نومه كثيراً ، فقد هبّ مذعوراً على رنين جرس التليفون ، فأسرع ووضع السماعة على أذنه التي تغطيها طاقية النوم ، فسمع من يقول :

بنسوار يا باشا ... أنا . . . . ، تقبل الاشتراك معنا في الوزارة ؟...

فما تمالك أن صاح :

الوزارة !... بكل سرور يا دولة الباشا !...

وانقطع الحديث بعد ذلك ، فقد دوت خلفه أصوات « الزغاريد » ، فالتفت فإذا زوجته و « شوشو » خلفه قد نشرتا الخبر همساً بين الدادة والخدامات ، فانطلقن يزغردن في جوف هذا الليل الساكن ، وصادف ذلك عودة الطباخ من الخارج ؛ فظن أن زوجته قد وضعت ، فصاح مهللا هو الآخر ، وأقبل على الخدم يسألهن في لهفة :

جابت إيه ؟... وضعت إيه ؟...

فأدركت الدادة مراده ، فبادرت إليه تقول :

مش هى ... مش هى ... دا الباشا !...

فحملق الرجل فيها كمن فقد صوابه :

ــ الباشا ؟... الباشا وضع ؟

فأسرعت الدادة تدفع الطباخ إلى السلم ، خشية أن يسمع الباشا قوله ، ولكنه سمعه كما سمعته زوجته وابنته فضحكوا ، وكان الوزير قد ترك الفراش بغير « روب دى شامبر » فعطس ، فأشفقت زوجته فأمرته أن يلزم سريره ، ثم اختفت لحظة عادت بعدها حاملة فنجاناً من « المغات » المعد للحامل ، فسقته إياه حاراً وقاية من البرد . . . ثم تركته وأبطأت لحظة ثم عادت بالمبخرة يتصاعد منها الدخان ورائحة البخور ، وصاحت به سابقة قبل أن يصيح بها معترضاً :

بقى اسمع ياباشا...ضرورى الليلة من إنك تتبخر بالفسوخ والعنزروت وعين العفريت ... إنت عارف إن حسادنا وأعادينه كثير ... وكفاية ما جرى لنا يوم بعيد عنك ما سقطنا ...

ولم تنتظر منه جواباً ... واقتربت منه وجعلت تمر بالمبخرة سبع مرات فوق رأسه ، وجمدت عين الوزير على المبخرة النحاسية . فتذكر وزارة الأوقاف ... كلا لا يمكن أن تكون هى الوزارة التى سيُقلدها ، وتذكر أن حديث التليفون لم يعرف منه نوع الوزارة التى أسندت إليه ، وقد نسى من دهشته وذهوله وفرحته أن يسأل عن ذلك ... وماذا يهم ؟... أية وزارة مقبولة على العين والرأس ... وانتهت زوجته من عملية تبخيره ، كما تبخر الأشجار ذات الثمار « المندية » ، وهنا خطرت له أيضاً وزارة الزراعة ... لا ... لا ... ينبغى أن يكف عن التفكير فى أنواع الوزارات ... إنه وزير وكفى ... وا فرحتاه ... وابتعد عن المبخرة . . . وإذا صوت الحبلى يرتفع وقد جاءها الوجع . . . فقال لزوجته فى لهجة الأسف :

مسكينة . . . شربنا « مغاتها » وتبخرنا « ببخورها » . . . أنا خايف عليها تسقط ...

فقالت زوجته وهى خارجة من الحجرة :

تسقط هى أحسن ما تسقط أنت . . .

فابتسم . . . ثم قال همساً كالمخاطب لنفسه :

لا . . . الحمد لله . . . ربنا تممنا بالسلامة !! . . .

لم ينم « متولى باشا » هادئاً تلك الليلة ، وما أوشك الديك أن يصيح حتى كان واثباً على قدميه ، وسمع أهل البيت صوته وفتحه وإغلاقه الأبواب فقاموا لقيامه ، ودخل الحمام يحلق ذقنه ، ويخضب شاربه الذى شاب من طول القعود والانتظار ، فأحضر الصبغة المضمونة التى يحتفظ بها فصبغ ... ويظهر أنه أكثر ... فإنه ما كاد يخرج إلى القاعة وتراه ابنته حتى استغرقت فى الضحك، فانتهرها برفق وأفهمها أن الآنية المهملة فوق « الرف » ، ينبغى إذا أعيدت إلى العمل أن ينفض عنها على الأقل الغبار ، حتى تبدو فى مظهر الجدّة والصلاحية للاستعمال ، ونظر فى الساعة بصبر نافد فإذا هى لم تتجاوز السابعة ... لا ... لا يمكن أن يذهب الآن . . . إن الوزير فى أول يوم ينبغى أن يتباطأ إلى العاشرة على الأقل حتى لا يقال إنه « مسروع » على الكرسى ، ثم لابد أنهم سيتشرفون قبل ذلك بالذهاب إلى السراى . . . ثم قد يعقد الرئيس مجلس الوزراء بصفة مستعجلة لوضع الخطة التى تسير

عليها سياسة الوزراء ، ولا ينبغي أن يغتر كما سبق أول مرة ؛ فإن هذه الجلسة كما هي العادة لن تستغرق وقتاً طويلا ؛ فلن يتكلموا في برامج ولا إصلاحات ولا انقلابات اجتماعية أو اقتصادية ، ولا عن أسس الحكم والإدارة المنتجة . . . إنما سيدور البحث في وسائل منع اضطرابات الطلبة واكتسابهم بالمغريات والتلويح بتيسير الامتحانات والتساهل في الدرجات، فالحكومة على النظام البرلماني الحديث ، في مصر الآن ، ترتكز على قوتين : « البرلمان » للاستواء في الكراسي ، و « الطلبـــة » للاستقرار الهادىء في الكراسي ! . . . وكلاهما لا يكتسب إلا بوعود ومنح ، إن أعطيت فعلا فقد حلت الفوضى وفسدت الأخلاق ، وإن لم تعط فلا حكم ولا اطمئنان على حكم ! ...

ماعلينا ... ليس من شأنه هو الاعتراض على شيء ، ولا مانع عنده من الإعطاء والمنح ، ما دام غيره يمنحه ويعطيه ، ولا حياء في هذا ما دام هو اليوم دستور الجميع ! ...

وما كاد يرتدي ثيابه حتى دق جرس التليفون ينبئه بما توقع من عقد مجلس الوزراء جلسة سريعة في الساعة الحادية عشرة ،

بعد العودة من « السراى » مباشرة ، ونظرت إليـــه زوجته مستفهمة قائلة :

يا ترى « النهارده » مجلس الوزراء فيه تعيينات وترقيات ؟...

فقال لها وهو يلقى نظرة أخيرة فى المرآة على شاربه الأسود الحالك :

مافيش مانع ، جايز دولة « الرئيس » يربط ابن أخته على الدرجة الرابعة !...

فتنهدت زوجته وقالت ، وهى تبحث عن « شوشو » بطرف عينها :

عقبى لك لما تربط انت كمان « عريس » بنتك ! . . .

٢

ماقاربت الساعة منتصف الثانية عشرة حتى كانت الإجراءات المتقدم ذكرها قد تمت وانتهى الوزراء من فض المجلس وانتفش كل وزير فى صدر سيارته الحكومية إلى وزارته، ولم يمض قليل حتى وقفت سيارة «متولى باشا» أمام وزارة «. . . .»، وهجم السعاة والحجاب يفتحون باب السيارة، ونزل الوزير بين جموع من صغار الموظفين المنتظرين . . . مشى الوزير فى طريقه إلى حجرته مشية أراد أن تكون متزنة طبيعية ا... نعم ... فلا شيء أصعب على الوزير فى اليوم الأول من الصعود على سلم وزارته أو السير فى ردهتها أمام فيالق السعاة والحجاب والموظفين المتهامسين : «معالى الوزير» ... إنه يسمع هذا الهمس ويرى هذا الاحترام هو الذى كان بالأمس فقط مخلوقاً عادياً كسائر الناس، فيرتبك فى حركاته، ويرتج عليه فى إشاراته، ولا يدرى كيف يمشى ولا كيف يفعل حتى يكون حقيقة «معالى الوزير» ا ...

أيضع يده فى جيبه أثناء سيره ، أم يرسلها إلى جانبه ؟ ... وهل يسرع فى الخطى أو يتثاقل ويتهادى ؟... إن « متولى باشا » لن ينسى تلك الكلمة التى سمعها من أحد إخوانه الموظفين ، يوم كان موظفاً : «الوزير يعرف فى الحال ، من طلعته على السلم أول يوم ، ومشيته فى الردهة » ! . . . على أن الذى هون على « متولى باشا » الأمر أنه كان قبل اليوم وزيراً فلم تحيره المشكلة كثيراً ... كان الله فى عون الوزير الجديد الذى لم يتقلد وزارة من قبل ! .. وبالأخص ذلك النوع من وزراء النظام البرلمانى الذين لم يسبق لهم مران فى المناصب الحكومية ، ولم يدخلوا الحكومة إلا وزراء ، ولم يعرفوا القيادة والإدارة إلا كلاماً فى الكتب والصحف والخطب فإذا هم فى اليوم التالى يجدون أنفسهم أصحاب أدوار عظمى على مسرح الحكم ، وهم يرتدون ثياب السلطان الموشاة ، وقد سلطت على وجوههم الأنوار ، واتجهت إليهم الأنظار ؛ فإذا بهم ينبهرون من الأضواء ، ويتعثرون « فوق الخشبة » وإذا كل همهم منصرف إلى إتقان الحركات والإشارات ، وكل التفاتهم متجه إلى صندوق « الملقن » ، وهو هنا : إما سعادة

وكيل الوزارة المتوغل فى الشئون ، وإما دولة رئيسها الذى لا راد لمشيئته فى كل الأمور !...

ودخل « متولى باشا » حجرته المفروشة بأفخر الرياش ، وقد زينوها ذلك اليوم بأزهار جميلة فى أوانٍ أنيقة ، وجلس الوزير إلى مكتبة اللامع الضخم الفخم ، وكل شىء فوقه نظيف جديد ، حتى الحبر وورق النشاف وأسنان الأقلام ، إلى جانب التحف الصغيرة اللطيفة ! ...

وجاء وكيل الوزارة النشيط فى الأثر يقدم إلى معاليه كبار موظفى الوزارة ومديرى إداراتها ، فجعل « الباشا » يصافحهم واحداً واحداً : تارة فى تواضع ظاهر ، مقبلا على بعضهم كل الإقبال ، وتارة فى ترفع واضح ماداً إلى بعضهم أطراف أنامله . . . دون أن يكون لهذا أو لذاك سبب معقول . ولكنه الارتباك ! . . .

وانصرف الموظفون ، وهجم المهنئون من أعضاء النواب لحزبه الأكثرية الوزارية ، فاحتلوا المقاعد القطيفة والكراسى الجلد ، وأفنوا صناديق « السجاير » الموجودة ، ودخلت فناجين القهوة على الصوانى بالعشرات ، كأنهم فى « سرادق » عُرس !...

واختلطت الأحاديث بالقهقهات . وإذا الجميع على الأرائك، وعلى بعضهم العمائم البيض المزهرة المكوية كأنها « الفيشار » الناصع الجميل خارجاً من المقلاة ! ... فأدرك الوزير أنهم لن ينصرفوا سريعاً،فالحكومة حكومتهم،وهم في بيتهم ومطرحهم!! ... إلى أن أنقذه مدير مكتبه ، بحمل ثقيل من الملفات ، تستوجب الختم والتوقيع ... فأبدى الباشا بيده إشارة تدل على رغبته فى بدء العمل ، ففهم حضرات الزوار . . . ونهضوا معتذرين بكثرة مشاغلهم،وضيق وقتهم،ورغبتهم فى المرور على بقية الوزارات... وتنفس الوزير . . . ولكنه لم يكد يخلو إلى نفسه حتى سمع فى الردهة ضجيجاً وهتافاً . . . « فلتحى الوزارة الجديدة ! . . . فلتحى الوزارة المحبوبة !... نريد مقابلة الوزير !... »

وجاء مدير مكتبه يجرى ويقول : « الطلبة» !... فقال الوزير فى نفسه : « آه . . . نسيت القوة الأخرى » ولم يستطع الامتناع عن مقابلتهم ... ولم يستطع الحجّاب منع تيارهم ، فقد لمح الوزير بابه يهتز ويضطرب تحت ضغطهم . . . فأذن مرغماً بفتح الباب ، فتدفقت الجموع كالسيل الجارف ... وإذا هو غريق بين

طرابيش الطلبة الحمراء ؛ كالجريح في بركة من الدماء ، لا يكاد يتنفس ، وإذا بهذه الألوف قد احتلت كل شيء في المكان ... وتزاحموا حتى وقفوا على المقاعد القطيفة بأحذيتهم ؛ بعضهم فوق بعض وإذا مكتب « الباشا » قد جلس عليه بعض الطلبة ، وإذا أكتافه تكاد تقع تحت وقر كواهلهم ، وإذا الحابل قد اختلط بالنابل ، وهو لا يستطيع اعتراضاً ؛ فالحكومة حكومتهم هم أيضاً ، وقامت وتقوم بمؤازرتهم وهتافهم وإضرابهم « والبيت بيتهم هم أيضاً ومطرحهم »... ولفظ الوزير كلمتين أو ثلاثاً ترحيباً بهم ، وتأكيداً لحسن ظنهم في الوزارة الجديدة ، وتأميناً لهم على أن هذه الوزارة ستكون دائماً في خدمتهم وخدمة مطالبهم !...

وانصرف الطلبة أخيراً ، وانحسروا عن الحجرة كما ينحسر البحر عن جزر شديد ، تاركين المكان بعدهم وقد أصبح عجباً من العجب... نعم حجرة الوزير الأنيقة التي كانت هيئت وجملت لاستقباله ، قد أضحت كميدان الحرب إذا ارتفعت عنه الجيوش المحتلة ؛ فقد انقلبت الكراسي ، وتمزقت القطيفة ، وتحطمت الموائد ، وسقطت الأزهار ، ولطخ وحل الشوارع الأبسطة

والسجاجيد ، ودخل الخدم والفراشون وعلى وجوههم الاشمئزاز والامتعاض يصلحون ما أفسده الأنصار والأعوان ؛ ومع ذلك ليس هـــذا كل ما حدث ؛ فلقد تفقد الخدم الأوانى الصغيرة الأنيقة ، والزهريات اللطيفة ، و « طقاطيق السجاير » البديعة فوق الموائد ، فلم يعثروا لها على أثر ...

ونظر الوزير إلى أقلام الحبر الجميلة والتحف الخفيفة فوق مكتبه فلم يجد لها هو أيضاً أثراً ، فتبادل الخدم نظرات الألم ، ثم التفتوا إلى معالى الوزير فى خجل وأسف ، ولـكنه نظر إليهم بابتسامة فيها بعض السخرية ، تخفيها وتغطيهـــا نبرة التسامح الـكريم ...

— ديمقراطيتنا !... ديمقراطيتنا !...

٣

كان منزل « متولى باشا » فى ذلك اليوم هو الآخر ، كالبحر المائج الهائج ، فقد اصطخبت فيه حركة الزائرات الوافدات لتهنئة زوجة الوزير ، وهن من طبقات مختلفة ، ولكن أكثرهن كن من زوجات الموظفين ، أو من التابعين والمنزلفين ، أو ممن يسمون « الألاضيش » ، وقد ارتفعت الأصوات والضحكات واختلطت الأحاديث برنين أكواب « الشربات » ، وعبق المكان برائحة العطور الغالية والرخيصة ، وتلبد الجو بدخان « السجاير » وأحاطت الحاضرات « بخديجة هانم » زوجة « الباشا » يقمن لقيامها ، ويقعدن لقعودها ... وهى من فرحتها لا تصغى إليهن ، ولا تدرى ماذا يقلن . . . ولا تكاد تستقر فى مكانها ؛ لكثرة دق جرس التليفون ، ومحادثات الصديقات والزميلات ، وهى فى كل مرة تكاد تردد عين العبارات ، وتلفظ ذات الكلمات :

« الله يبارك فيك يا اختى ! . . . » « إن شاء الله عقبى لكم

فى الأفراح ! . . . الخ . . .

وتحدثت الحاضرات عن زوجة « رجب أفندى » محسوب « الباشا » فى الوزارات السابقة ، وتفقدنها ؛ فقد كانت لا تفارق هذا البيت ، لتقدم خدماتها ، وتسلى « الست » وتفصل « لشوشو » الثياب المنزلية البسيطة ؛ — لماذا لم تحضر هـذه المرأة اليوم ، ولماذا لا تُرى بين الزائرات ؟... سؤال أجابت عنه أخيراً زائرة كانت منذ قليل بمنزل حرم رئيس الوزراء ، وأبصرت «رجب أفندى» بالباب يتلق بطاقات المهنئين ؛ كما أبصرت زوجته عند أقدام « الرئيسة » ، فأدركت أنهما قد ترقيا وأصبحا الآن من « محاسيب » الرياسة ، على أن « خديجة هانم » لم تمتعض كثيراً لذلك ؛ فإن مكان « رجب افندى » وزوجته لن يبقى شاغراً مدة طويلة ؛ فها هى ذى امرأة نشيطة تجرى هنا وهناك ، تعين على عمل القهوة وصنع الشربات ! ...

إنها زوجة موظف صغير فى وزارة « متولى باشا » ، ومع ذلك لم يخل انصراف المحسوبين السابقين على هذا النحو من أثرٍ أرادت « خديجة هانم » إخفاءه بقولها : إنه لا فرق بين منزلها

ومنزل حرم الرئيس ، وإن الذى يعنيها مصلحة « رجب افندى »
وزوجته ... ودق عندئذ جرس التلفون من جديد ، فنهضت ربة
البيت إليه ، ودار بينها وبين مخاطبتها هذا الحديث :

— مبارك عليكم الوزارة انتم « كمان » يا اختى !...

— مش حانروح كلنا نزور حرم الرئيس ؟...

— طبعاً يا اختى ضرورى !...

— وناوية تلبسى إيه يا « خديجة هانم » ؟ ...

— قولى لى إنت الأول رايحه تلبسى إيه ؟ ... إنت عارفه
بسلامتها حرم الرئيس شاطره فى الانتقاد ! ...

— عارفاها بعيد عنك لسانها سايب ! ...

* * *

فى تلك الأثناء كانت «شوشو» ابنة «متولى باشا» مع خطيبها
«مراد عبد الله» الموظف فى وزارة أبيها ، راكبين سيارة معالى
الوزير الرسمية فى طريقهما إلى حوانيت شارع « فؤاد » ؛ فقد
طلبت الفتاة السيارة الوزارية بالتليفون، وذهبت بها إلى الوزارة:
فأخرجت خطيبها من عمله ليذهب معها لانتقاء حذاء جديد . . .

ولم يعترض هذا الإجراء أى صعوبة ؛ فقد بقيت هى فى السيارة وأوفدت سائق الوزير يطلب الموظف « مراد بك عبد الله » ... وإن ظهور سائق الوزير أمام رئيس من رؤساء الإدارات كافٍ لإجابة الطلب، وأنزلت السيارة الخطيبين أمام الحانوت . وعادت سريعة إلى الوزارة لتقل الوزير إلى مجلس الوزراء !... وسارت « شوشو » متأبطة ذراع خطيبها ، تنظر فى واجهات الحوانيت ، ولسانها لا يقف لحظة عن الثرثرة !...

لقد كان من السهل على الناظر إليهما أن يتبين مقدار تعلق الفتاة بالفتى !... لقد كانت تسير به من شارع إلى شارع لا لمجرد السير ؛ بل لمجرد المباهاة بأن فى ذراعها فتاها .. إن تأثير السينما فى أمثال « شوشو » من الفتيات لأعمق من تأثير الدراسة النظرية التى خرجت بها فى مراحل التعليم ! ... لقد قابلت « مراد » أول مرة فى « بلاج ستانلى » ذات صيف ... وكانت قد أمضت عامها الدراسى النهائى ... ومنذ ذلك اليوم وهى ترى فى « مراد » أكثر من خطيب ... إنه الفتى الذى تمثل وإياه الدور الذى تحلم كل فتاة غريرة بتمثيله ! ...

هذا الدور الذي تلقنته لا من الكتب ولا من المربين والمربيات !... ولكن مما رأته على الستار الفضي ... أما «مراد» — وهو خريج الجامعة منذ ثلاثة أعوام — فقد كان يلوح عليه أنه فرغ من لعب هذا الدور، وأنه الآن متهيء لدور آخر فيه من الجد ما يناسب نظرته الجديدة إلى الحياة ... لعل هذا هو السبب في رزانة «مراد» وهو يسير متباطئاً تاركاً ذراعه لخطيبته بغير تحمس بالغ ! ... لقد كان حريصاً على إرضائها ... ساعياً إلى اكتساب قلبها ... ولكن قلبه هو ... إن من الخطإ القول بأنه لا يحب «شوشو» ! ... إنها تعجبه من غير شك ... تعجبه لأنها يجب أن تعجبه، ويجب أن يحبها ... إن عقله كان يحتم عليه ذلك، وكان يقنعه بذلك !... ولقد ارتفع صوت عقله، حتى طغى على صوت قلبه الهامس بذكريات عزيزة ! ...

٤

فى الساعة العاشرة من صباح اليوم التالى كان « متولى باشا » جالساً إلى مكتبه بالوزارة ، يرشف فنجان القهوة ، ويصغى إلى عرض سريع لشئون العمل ونظامه ، يلقيه على مسامعه وكيل الوزارة بناء على طلبه ، وكان بين الفترة والفترة يوجه سؤالا ، أو يبدى ملاحظة، أحس هو نفسه أحياناً أنها تافهة أو سخيفة!... ولكن وكيل الوزارة يسرع قائلا :

نظر معاليك فى محله ...

ولو أن هذا الوكيل كان يسخر من نظر الوزير فى أعماق نفسه لاستحق بعض الاحترام ؛ ولكن المصيبة أنه جادّ فيما يقول ... أو كان يقنع نفسه بأنه جادّ . وانتهى من عرضه ، وكان على « الباشا » الوزير بعد ذلك أن يتكلم أو يقول شيئاً ، ويبين عن وجهة نظره أو سياسته التى سيسير عليها ، لو أن له ما يصح أن يدعى سياسة ؛ ولكنه ما كاد يلفظ جملة أو جملتين حتى رأى

في شفتي الوكيل وعينيه ما يدل على أنه موافق سلفاً ، ومتحمس مقدماً على ما قال الوزير وما لم يقل بعد من الكلام !...

وفطن الوزير إلى ذلك واطمأن إليه ، فهذا من غير ريب شيء مريح ... ولكنه لم يلبث أن أحس أنه من جهة أخرى أمر متعب أن يحمل هو وحده مسئولية ما يقول ... على أنه كإنسان فيه ضعفه ، — لا يكره كثيراً هذا النوع من الأشخاص الذين يقولون له دائماً : آمين ...

وذكره هذا الخاطر بمسألة خطيب بنته « شوشو » فلم يدر كيف عرج بموضوع الحديث إلى ناحية أخرى قائلاً للوكيل :

على فكرة ... انتم عندكم درجات خامسة خالية ؟...

فسأل الوكيل :

فنية والا إدارية يا معالي الوزير ؟...

فقال وقد نسي هذه الفرق :

أظن فنية ...

فانطلق الجواب من فم الوكيل ، وقد تنسم بذكائه وخبرته الريح الموحية بالسؤال :

من غير شك ...لو سمحت معاليك تطلب مدير المستخدمين...

ووثب من فوق كرسيه إلى الجرس ، وطلب إلى «السكرتير» أن ينادى مدير المستخدمين حالا ... ولم يمض قليل حتى جاء هذا المدير ، ففتح له الباب ذو « المراوح » ، وما كاد يخطو فى الحجرة خطوة حتى ابتدره وكيل الوزارة قائلا :

— انت طبعا عندك درجات خامسة خالية ؟...

فجعل مدير المستخدمين ينقّل نظره فى صمت وحيرة ، بين الوزير وبين وكيل الوزارة ، ثم قال فى شبه همس موجهاً كلامه إلى الوكيل :

سعادتك عارف إن ماعندناش دلوقت درجات فنية خالية...

فقال الوكيل :

بقى ما تعرفش تدبر درجة خامسة بسرعة ؟...

فقال المدير فى صوت خافت :

ندبرها إزاى ؟ ...

وكاد « متولى باشا » يعتقد أن الباب قد أغلق ، وأن لاسبيل إلى الكلام فى هذا الموضوع بعد ذلك ، ولكن وكيل الوزارة

— حلاّل المعضلات — أسرع يقول فى ثقة بنفسه واطمئنان إلى قدرته :

أنا أقول لك تدبرها ازاى ... انت طبعـــاً عندك درجة خامسة إدارية ... اتنقلها فنية ... والغيها من الكادر الإدارى ؟... مفهوم ؟ ... دبرنا المسألة والا لأ ؟... رح بسرعة اعمل مذكرة بالحل ده !...

فوقف مدير المستخدمين فى مكانه بلا حراك ، ونظر إلى الوكيل ، كأنه يريد أن يكلمه سراً ، فقال له الوكيل :

منتظر إيه ؟...

فقال المدير همساً :

سعادتك مش فاكر ... تلغيها من الكادر الإدارى إزاى ، دى مستحقة لسيد أفندى !!...

سيد افندى مين ؟...

— سيد افندى عبد الباقى رئيس قلم العلاوات ... الراجل طالع على المعاش آخر الشهر . . . ومنتظر الدرجة اليومين دول تحسين معاشه . .

ـ انزل بسرعة اعمل المذكرة ... « سيد أفندى عبد الباقى » نبقى نبحث موضوعه فى المستقبل !...

وخرج مدير المستخدمين صادعاً بالأمر ، وأطرق الوزير لحظة يفكر ثم رفع رأسه ، وقال للوكيل :

المسألة يظهر فيها صعوبة ...

فقال الوكيل من فوره :

أبداً . . . أبداً ، يا معالى الوزير ! . . . المسألة فى منتهى البساطة ! . . .

ولم يكد يتم عبارته حتى دق جرس التليفون ، على يسار الباشا ، فتناول الباشا السماعة ، فإذا سكرتيره الخاص يقول :

البيت ! . . .

ثم حول إليه « السكة » . . . فإذا صوت « شوشو » يصيح فى أذنه :

بابا مسألة « مراد » إياك تنساها !...

قال لها فى الحال :

أدحنا بنحل فيها ...

ـ إياك تيجى النهار ده من غير ما تتم !...

ـ اطمئنى ! . . .

ـ يعنى تبقى ماهيته كم ؟...

ـ وبعدين بقى يا «شوشو» ؟!... مش وقته اعملى معروف» احنا قدامنا أعمال أهم من كده كثير ...

ـ مهام الدولة ؟...

ـ طبعاً . . . طبعاً . . .

ووضع الوزير السماعة ، والتفت إلى وكيل الوزارة فوجد فى وجهه ماينمّ عن أنه اعتاد مثل هذا الموقف ، فاطمأن قلبه ، وأراد أن يصل الكلام الذى انقطع بحديث «التليفون» وأن يعود إلى الكلام فى مهام « ... » فنظر إلى وكيله قائلا :

نعم ... كنا بنتكلم فى إيه ؟...

فقال الوكيل اليقظ :

معاليك كنت مستصعب مسألة الدرجة ...

فقال الوزير متذكراً :

آه ... ما دام بقى الدرجة موجودة ...

فأسرع الوكيل النشيط يقول :

اطمئن معاليك ... معاليك ما تشغلش بالك بالمسألة دى ... اترك لى الموضوع ! ...

ووقف الأمر عند هذا الحد ، ولم يجد الوزير سبيلاً إلى استمرار الكلام فيه ، فسكت وفكره ما زال مشغولا ، يسائل نفسه فى عجب : ترى ماذا سيصنع هذا الوكيل وهو لم يذكر له اسم الشخص المراد ترقيته ؟ ... أترى من شأن الوكيل الفطن أيضاً أن يتكفل بشم رائحته ، واستخراجه من بين موظفى الوزارة ؟ ! . . .

٥

ما هى تلك الهمسات المكتومة فى قلب « مراد » خطيب «شوشو» ؟... ماهى تلك الذكريات المدفونة فى طيات نفسه المتهيئة لحياة جديدة ؟... الجواب عن هذا فى منزل بحى الروضة ، تقطنه أسرة صغيرة متوسطة الحال ، قوامها « سيد أفندى عبد الباقى » رئيس قلم العلاوات وزوجته العجوز ، وابنتهما « سميرة » خريجة الجامعة ... لقد كانت « سميرة » زميلة « مراد » فى جميع سنوات الدراسة الجامعية ، وتخرجا معاً فى كلية الآداب ! ... واستطاع مراد أن يجد وظيفة فى وزارة « . . . » أما هى فلم تستطع ، لأن أباها رجل طيب لا يعرف أساليب الحياة الحديثة ، ولا يستسيغ طريق الوساطة ، فهو يؤثر أن يحرم حقه الذى استحقه بعمله وكدّه على أن يناله بالسؤال والمذلة والإلحاح... وهو يقول لابنته دائماً ما يحسبه خلاصة فلسفته فى الحياة :

« حسبنا أن نعمل بإخلاص ... هذا هو كل المطلوب منا ، ولا خير فى الدنيا بعد ذلك ، إن لم يكن فيها من يجزينا على عملنا

ويمنحنا حقنا ! ... »

ولو علم هذا الفيلسوف السليم النية أن حقه الساعة تعبث به المقادير ، وأنه سينتزع من فمه ؛ ليمنح ذلك الشاب زميل ابنته لكان له رأى آخر فى مثل هذه الدنيا أقسى مما تصور ! ... إنه بالطبع لم يكن يعلم ما يدبره القدر ، أو على الأصح الوزير مع وكيل الوزارة ... ولا كانت « سميرة » تدرى شيئاً ، فهى فى ذلك اليوم ما كانت تفكر إلا فى شطر من حياتها ، توشك أن تهيل عليه التراب ! ... لقد أغلقت فى ذلك المساء عليها باب حجرتها بالمفتاح ... وأضاءت على رأس سريرها المصباح ، وأخرجت مجموعة من الرسائل كانت تخفيها وتعتز بها ، وطفقت تقرؤها القراءة الأخيرة ، وعبراتها تنهمر ، قبل أن تردها إلى صاحبها ... نعم ... لقد حادثها « مراد » صباح اليوم بالتليفون ، بعد قطيعة دامت شهوراً ! ... لا ليصالحها ، ولكن ليسألها أن تعيد إليه خطاباته ؛ لأنه أزمع الزواج من ابنة الوزير ...

إنها كانت تلمح من ثنايا حديثه فى لقائهما الأخير منذ شهور أنه مقبل على مثل هذا العمل ... فلقد رأت منه تغيراً هالها ...

لقد نسى المبادىء التى تعاهدا على احترامها ... وسخر بالمثل العليا التى أقسما أن يعيشا بها... ولهذا افترقا متخاصمين... ولكنها لم تكن تظن أنه يقدم بهذه السرعة على اختيار الطريق الذى سار فيه ... أهذا هو مراد حقاً ؟ ... أهذا هو مراد الذى كان يكتب إليها هذه الخطابات ؟... وأمسكت «سميرة» بخطاب من بين المجموعة، وجعلت تقرأ بصوت خافت مرتجف هذه السطور :

سمر العزيزة ! ...

« حبنا الخالد يجب أن يبقى ما بقيت مصر الخالدة ... إياك أن تنسى هذه الكلمة التى هتفنا بها أمس أول مرة، وقد اجتزنا منفردين حديقة الأورمان، بعد عودتنا من الاحتفال بذكرى شهداء الجامعة، لقد كانت أول مرة نلفظ فيها كلمة الحب ... لطالما أردت أن تسمى علاقتنا صداقة وإخاء روحياً ... ولقد كنت أجاريك فى تلك التسمية، لأنى كنت أرضى منك بأى شيء، ولا أجرؤ أن أصارحك بحقيقة العاطفة التى أشعر بها نحوك ... كلا يا «سمر» ... إنها كانت شيئاً أقوى من الصداقة ؛ لأنى ما كنت أطيق أن أرى أى صداقة أخرى، تنشأ بينك وبين زميل آخر من الطلبة ...

لقد كدت أضمر الشر وأتأهب اصفع صديقى «فهيم» ، لأنى رأيته يسير إلى جانبك ذات عصر ، يحادثك طويلا حتى محطة الترام... إن «فهيم» هو زعيم الطلبة الذى نضرب عن الدراسة إذا أضرب، ونهتف وراءه إذا هتف ... وكنت أخشى أن يكون لهذا المظهر المغرى أثر فى نفسك ...

لكم قضيت يا «سمر» الليالى الطوال ساهراً ، تعض قلبى الغيرة عضاً ، كلما حادثك «فهيم» يخيل إلىّ أنه معجب بك ، وأنه يخصك بالتفاته دون بقية الطالبات ... لقد انقلبت مودتى له كراهية ... وإعجابى به عداوة . . . منذ تلك الساعة وأنا أوقن أن الذى أحمل لك هو الحب . . . الحب القوى العاصف . . . الحب الذى يعرف التضحية ! . . .

نعم يا «سميرة» ! ... لقد تكلمنا أمس كثيراً عن التضحية بمناسبة الشهداء، وقلنا إن قلوبهم كانت لاشك عظيمة، وإن حبهم لبلادهم كان عميقاً ، فضحّوا بأرواحهم من أجله ، فتشجعت وقلت لك عندئذ : إنى أحس هذا الإحساس نحوك ، وإنى مستعد أن أضحّى حياتى من أجلك... فالتفت إلىّ وقد احمر وجهك احمراراً

شديداً ، فشعرت بسعادة لا توصف ، ولم يكتم أحدنا الآخر بعد ذلك حقيقة عواطفه ...

إنى أكتب إليك كل هذا يا « سميرة » فى وقت أنا أحوج فيه إلى دقيقة للمذاكرة . . . وأنتِ مثلى . . . فامتحان الليسانس بعد شهرين ، ولكنى أريد أن أسجل على الورق كلماتنا حتى لا تنسيها ! . . .

أما أنا فثق أنى لن أنسى ما حييت كلمة تخرج من فمك ! . . .

إنك إيمانى يا « سمير » ، إيمانى بنفسى ، وبالحياة !... إيمانى برسالتنا فى الحياة ، يوم نخرج إلى معتركها !...

لقد تحدثنا فى ذلك طويلاً أمس ، وقبل الأمس ، لقد قلنا إن حياتنا هى لمصر ، ويجب أن تكون لمصر ، لا لأنفسنا !...وبذلك نكون جديرين بأولئك الزملاء الذين منحوا مصر أرواحهم!...

لن أنسى دموعك وأنت تنثرين على نصبهم التذكارى باقة أزهارك ، التى قلتِ لى إنك حرمت نفسك مشاهدة السينما شهوراً لتقتصدى ثمنها . أنا أيضاً فعلت ذلك فى العام الماضى ، لهذا التقت روحانا سريعاً ... يجب أن نضع راحتنا بل حياتنا فى خدمة مثل

أعلى... ذلك كان موضوع حديثنا الدائم فى غدواتنا وروحاتنا...

ألا تذكرين ؟... لقد تحدثنا عن المستقبل... وسألتُك عن حلمك فى الحياة، وعما تفعلين إذا تقدم إليك خاطب من أصحاب الثروة والجاه؟... لقد كان هذا فى الحقيقة حلمى أنا المزعج...أن أراك يوما بعد تخرجك وقد اختطفك منى أحد هؤلاء !. ولكنك زجرتنى زجراً سرنى، وقلت لى إن هذا عار على شبيبتنا الحاضرة أن تفكر هذا التفكير، فنحن يجب أن نخرج إلى المجتمع، لا لنمد أيدينا للاغتراف من ترفه ومتعه، بل نمدها باللَّبِنات والأحجار، لنشيد مستقبل بلادنا على أسس المثل العليا والأخلاق العظمى...

حقاً يا سميرتى ... نحن الشباب ... لسنا سوى مصر الغد ؛ فإياك أن نشوّه صورة مصر الغد !... إن رسالتنا هى الخروج إلى المجتمع لإصلاح ما أفسدته المطامع المادية والمنافع الشخصية ؛ لا أن نجرف فى تيار النفعية والوصولية ...

واجبنا أن ننتشل بلدنا من الأدران بسواعدنا المفتولة الفتية !.

لقد سألتنى أنت أيضاً عين سؤالى، وقلت لى : ماذا أنا فاعل لو عرضت علىّ زوجة تحقق لى كل مطمع مادى !...وإنك لتذكرين

أني لم أجبك بغير ابتسامة هادئة ، فأنا لم أكن محتاجاً إلى إقناعك طويلا بأني لست هذا الشاب !... كلا ياعزيزتي «سمر» ، لا يجدر بنا أن نسيء الظن لحظة بأنفسنا ، أو نفقد الثقة لحظة بمبادئنا !...

إيماننا بخلقنا نحن شبيبة اليوم ؛ هو إيمان بمستقبل بلادنا ، وإنها لجريمة أن نشك في هذا المستقبل !... حذار أن ترتابي في يوما يا «سميرة» ، ومعاذ الله أن أرتاب فيك .. إنك إيماني كما قلت لك .. وإني لأكررها لك حتى لا تمحوها الأيام من ذاكرتك : أنت إيماني بنفسي ، وبالحياة ، وبرسالتنا إلى الوطن العزيز !... أنت لي إلى الأبد !. وأنا لك... أنت زوجتي التي لن أحيا بدونها ، ولن أتصور لي زوجة غيرها ... إياك أن تنسي أننا تعاهدنا البارحة على الزواج ، عقب نجاحنا في الليسانس ، وأشهدنا الهلال الصغير الطالع على هذا العهد المقدس، فاهتفي معي مرة أخرى : حبنا الخالد يجب أن يبقى ما بقيت مصر الخالدة !...

«مراد»

طوت «سميرة» الرسالة ودستها بين غيرها من رسائل المجموعة، ولم تحاول أن تقرأ سواها ؛ فإن ما ورد في كل الرسائل لم يخرج عن نطاق هذه الكلمات والمعاني ومسحت الفتاة دموعها ، ووضعت

المجموعة فى غلاف كبير أبيض ، كأنه كفن يضم رفات عزيزة ، على أن شعور الحزن والأسى فيها لم يلبث أن تحول إلى عاطفة حقد وغيظ... ذلك أن إحساس الأنثى فيها تغلب على كل ماعداه !... لولا هذا لكان الأحرى بها أن تضحك،والأنسب لها أن تسخر ، وقد رأت مصير ذلك الحب الخالد ، ومآل تلك المثل العليا !!...

ولكن صدمةالقلب عندالمرأة أقوى من كل شىء، لذلك لم تفكر « سميرة » فى أى شىء آخر ؛ سوى الثأر ، والرد العاجل على تلك الصفعة القاسية،وهذا الرد لا يكلفها غير لفظة واحدة من شفتيها : إن « فهيم » زعيم الطلبة السابق والمحامى الآن قد طلبها إلى والدها وما زال ينتظر الجواب وهى تماطله وتماطل والدها ، زاعمة أنها تريد حياة العمل ، وأنها إنما خلقت للكفاح والجهاد . . . وهى فى حقيقة الأمر ما كانت تريد بذلك غـــير كسب الوقت ، وإفساح الأجل لحبيبها لعله يعود إليها بعد القطيعة ، إنها لم تكن قد فقدت الأمل ؛ لأنه لم يكن قد أعلن خطبته لابنة الوزير . . . ولم يكن قد فاتحها بعدُ فى أمر رد رسائله ؛ أما اليوم وقد قضى الأمر ... وحنث « مراد » بعهوده ، فلابد لها هى أيضاً من أن

تحنث ، وما دامت وجهته في الحياة قد وضحت ، وظهر أنه قد آثر عليها ابنة رجل ذى سلطان، ليرقى به سريعاً درجات المجتمع ، فإن من الذلة لها أن تبقى هى فى أسفل الدرج، تنظر إليه فى ارتفاعه!.
لا بد لها هى أيضاً من أن ترتفع . لو كان باستطاعتها أن تظفر هى أيضاً بابن وزير !... ولكن أين لها ذلك ؟... إن « مراد » حقق هذا لأنه شاب وسيم ذكى ، وقد أراد ذلك واستطاعه ، وأمكنه أن يلتمس الأسباب التى ينال بها قلب « شوشو » ، ولكن هى المرأة كيف تغزو هى قلب رجل يحقق لها مطامعها ... كان هذا هو تفكير « سميرة » منذ علمت بكارثتها . . . لم يكن شىء يعذبها إلا هذه الرغبة المحرقة فى الرد على عمل «مراد» بمثله ... إن أخشى ما كانت تخشاه أن تتزوج رجلاً أقل من « مراد » مركزاً . . . إن تلك الفكرة كانت تقتلها قتلا . . . وإن خير ما كانت تتمناه هو أن تستطيع أن تقول لمراد :

أنا أيضاً قد تزوجت شاباً لا يقل عنك ؛ بل هو خير منك طبقة ودرجة ونفوذاً ... هذا هو ميدان التنافس الجديد بين الحبيبين السابقين !! ... ولم يكن فى أفق «سميرة» ما يبشر بفوز قريب ، ولم

يكن لها مندوحة آخر الأمر عن أن ترضى بالمحامى زعيم الطلبة...

فمن يدرى، ربما استطاع أن ينجح فى تسلق الذرا هو الآخر!...

إنه يؤكد لها ذلك، ويحدثها كلما زارهم عن آماله ... ويغريها بأنه سوف يصبح فى عهد هذه الوزارة شيئاً مذكوراً ... فهو ذو صلة وثيقة بالوزير «زيد باشا» صاحب الحول والطول فى الوزارة ... وإن هذا الوزير الخطير يعلم كل العلم ما قام به «فهيم» من خدمات للوزارة قبل تبوئها كراسى الحكم... فنظم لها حركات الإضراب خير تنظيم بناء على تعليمات الحزب!... وأغرى الطلبة بالانضمام إلى الحزب، تارة بالوعود، مؤكداً أن هذه الوزارة سوف تُنقص درجات النجاح فى الامتحانات، وتارة بالمال الذى كان يتلقاه من الحزب لهذا الغرض!... حتى الهتافات فى المظاهرات هو الذى كان يدبر لها من يتولاها من أصحاب الحناجر القوية، ويوم تولت الوزارة الحكم كان هو الذى أوعز إلى الطلبة أن يتدفقوا على كل وزارة ووزير للهتاف بالتحية، ولإظهار العاطفة الوطنية، ولإقناع الخصوم بأن هذه الوزارة هى وزارة الأمة المحبوبة دون سواها!...

كل هذا يعرفه الذهن المفكر لهذه الوزارة، وهو «زيد

باشا » ! ... وقد وعد زعيم الطلبة « فهيم » بحظ من الغنم وقسط من النعيم . لا يدرى بعد ما هو : أهى وظيفة طيبة ، أم كرسى فى مجلس النواب ؟ ...

كانت « سميرة » تصغى إلى هذا الكلام دون غضب ، ودون ابتسامة ازدراء ، ودون أن يجتاحها شعور بخيبة أمل فى هذا الشاب الذى كانت تظنه متحمساً للوطن من أجل الوطنية ! ... وهو من غير شك كان كذلك يوماً من الأيام قبل أن تصبح زعامة الطلبة عملا يتصل مباشرة بسياسة الأحزاب ، وشغلا يكاد يكون مهنة أو وظيفة ، يرصد لها المال ، وترسم لها الخطط ، وأداة تعبث بها أصابع الزعماء ! ...

نعم . . . لم تسخط « سميرة » لكل هذا ، ولم تفكر فى مداه وخطورته وبعده عن مثلها العليا القديمة ؛ بل إنها سُرَّت به ورأت فيه التفرج ، وأيقنت بأن حلمها الجديد موشك أن يتحقق ، فبادرت تبدى لفهيم – عندما عرض عليها ذلك – رأيها قائلة فى حزم وتحمس :

« أنا أفضل لك مجلس النواب ! ... »

٦

جعلت الساعة السادسة من مساء الجمعة موعداً يلتقى فيه «مراد» بـ «سميرة»، لرد مجموعات الرسائل التى تبودلت بينهما... واتفق على أن يكون اللقاء أمام النصب التذكارى بالجامعة ! ... فما كادت تدق ساعة الجامعة دقاتها الست ، حتى كان «مراد» يمشى حول النصب منتظراً نافد الصبر ... إنه عين الانتظار السابق ، وعين الصبر النافد ، ولكن شتان بين الباعث والباعث ، والعاطفة والعاطفة ، والأفكار والأفكار ! . . . إنه الآن يخشى أن تبطىء فتضيع عليه موعداً آخر فى بيت الوزير ، ويخشى أن يطرأ تغيير على عزمها ، فلا تأتى فيظل واقعاً تحت تهديد تلك الرسائل اللعينة ... ثم هو يخشى أيضاً عاطفته ... لقد انطفأت جذوة ذلك الحب الصبيانى ، ولكن لماذا النبش عاجلا فى رماده ؟ ... يجب أن يشغل شعوره وفكره بالمستقبل لا بالماضى ...

ثم يا لها من مواجهة مربكة محيرة ! ... ماذا هو قائل لها فى أمر زواجه ؟ ... هل يسكت ويتهرب ، أو يعلل ويبرر ؟ ...

لعل خير الأمور اختصار الاجتماع فى مثل هـــذه المواقف ، واختزال الكلام فى مثل هذه الظروف ...

نعم !... هذا ما يجب أن يلجأ إليه ... سرعة إنهاء المقابلة !...

وجهز فى يده الغلاف الذى يضم الرسائل القليلة التى كانت قد كتبتها إليه ، وعوّل على أن يبادرها بتقديم الغلاف ، متحاشياً فتح حديث طويل ، ومضت دقائق خمس بعد السادسة ، وإذا هو يسمع صوت خطوات خلفه علم أنهـا خطواتها ... فإن أذنه كانت ولم تزلْ تعرف وقع هذه الخطوات، وتستطيع تمييزها من بين ألوف ... فاســـتدار يقابلها ، ووقعت العينُ فى العين ، فألتى نظرة جامدة... هى الأخرى كانت فيما يبدو قد أعدت نفسها لهذا اللقاء ، لولا شحوب قليل خانها ... وأفصح عما بها لأيقن أنه أمام فتاة غريبة ، لم يسبق لها أن رأته ...

وحيت برأسها تحية مختصرة رداً على تحيتـــه ؛ وقدمت من فورها يدها بغلاف رسائله الذى تحمله ، وكل شىء فيها يدل على أنهـا نوتْ هى أيضاً أن تتجنب كل ما يشعر بضعف ، أو يومىء إلى رغبة فى استجرار حديث أو استدرار عتاب !...

وقدم لها هو كذلك غلاف رسائلها ، فتناولته شاكرة ، وهمت بالانصراف ، فتناول يدها فى يده وقال :

ننصرف أصدقاء ؟ . . .

فتمهلت فى الإجابة؛إذ من المؤلم المرأة أن تضطر إلى استبدال الحب بالصداقة، وأن ترغم على قبول رجلها صديقاً لا حبيباً ... ولكن كبرياءها حتم عليها أن تقول له :

ولِمَ لا ؟ . . .

ولم يكن صوتها كالماء النمير النابع من الصدق ؛ بل كانت تخالطه نبرة التحدى ، وكيف فات « مراداً » أنه قد مس كبرياءها بهذه الكلمة ؟... إنها كانت تغتفر له هذه الإهانة لو أنه قال لها :

« فلننصرف بعد أن أهلنا التراب على حبنا الذى كان » ! ...

فالمرأة تستطيع أن تعيش مع الحب ميتاً دفيناً . . . ولكنها لا تستطيع أن تراه قد مسخ مخلوقاً آخر ، حتى ولو كان هذا المخلوق أنبل العواطف ... ما دام ليس هو الحب ...

إنها تعيش مع الحب الميت ؛ لأنها تستطيع أن تضع عليه فى كل يوم زهرة من دموع الذكرى ! . . . ولكن ماذا تراها

تستطيع أن تصنع مع ذلك المسخ الجديد ؟ ! . . .

ومضى « مراد » فيما تورط فيه ، قاصداً إظهار صداقته فقال :

ثقي أني سأهتم دائماً بخطواتك في الحياة ...

وكانت تنتظر هذه الفرصة لتعلنه شامخة متحدية :

ثق أن خطواتي في الحياة لا تقل ثباتاً عن خطواتك ! . . .

— أنا كما تعلمين أول من يهنئك ! . . .

— نعم ... تستطيع أن تهنئني بخطوبتي إلى « فهيم » ، ولعلك تعلم أنه مرشح لعضوية مجلس النواب . . . وليس من الصعب على مثله أن يصير وزيراً ! . . .

قالت كل ذلك بسرعة ، وكأنها كانت تحرص على أن تقول له ما قالت ، كأنها خافت فوات الفرصة التي تمكنها من الإفضاء بهذا . . . فلما أفضت به استراحت ! ...

أما « مراد » فكل ما استرعى التفاته من هذا كله . . . هو أمر واحد وقع في نفسه ، وحمله على التفكير والهمس والترديد :

« مجلس النواب » ! . . .

في الواقع أن هذا الطريق أيسر وأقصر من طريق الوظائف .

وأدركت « سميرة » أنها قد سددت ورمت وأصابت ، وأنها قد حققت ما أرادت ، وأشعرته بأنه ليس وحده الناجح فى حياته ، وأحست أنها تستطيع أن تغادره الآن ، وهى رافعة الرأس ، فصافحته مودعة ، فصافحها . . .

وعندئذ حانت منهما فى ذات الوقت التفاتة إلى النصب التذكارى ، وفى عين الوقت أضاءت فى رأسيهما بحروف مرتعشة تلك العبارة النارية :

« حبُّنا الخالد يجب أن يبقى ما بقيت مصر الخالدة ! ... »

أما الشطر الأول وهو حبهما الخالد ، فقد ظهر لهما مقدار خلوده ... وأما الشطر الثانى ... وهنا شعرا — لأول مرة عن وعى ظاهر — أنهما أخذا يشكان قليلا فى حقيقة تلك المبادىء والمثل العليا التى كانت عندهما وعند زملائهما بمثابة إيمان . . . أتراه كان عبث صغار ؟ ...

أتراها مشاعر شباب غير مسئول كما يقال ؟ ... ولكنهم مع ذلك اعتقدوا بهذه المثل وآمنوا بحقيقتها فى وقت من الأوقات ، ومات بعضهم مضحياً بدمه فى سبيلها ، وها هو ذا « النصب »

يشهد به ! . . . أتراها كلمات جميلة تحلو للترديد داخل المدارس والجامعات ؟... ولا تصلح للعمل بها خارج المعاهد ؟ ! ... أترى مصر الخالدة ، والوطن الخالد ، والتضحية ، والنفع العام ... إلخ ... أشياء من قبيل الأوهام ...

نعم . . . هذه هى الحياة بحقائقها قد تكشفت لهم عن مصالح خاصة ، ومنافع شخصية ، ومجالس نيابية ، ووظائف ودرجات ومرتبات ، وعضوية شركات ، ومناصب حكومية ، وأبهة وزارية . . . أليست هذه هى الحياة ؟ . . . وما خلاها عبث صغار وخيالات صبا وأحلام شباب ؟ ...

من الذى أفهمهم أن هذه هى الحياة !... أليسو قادة الرأى ، وزعماء الحكم ، ورؤساء الأحزاب ؟ . . . أليسوا كلهم يعيشون على مذهب آخر قوامه « أبهة الحكم ومتعة الحياة » ؟... أليس ذلك هو « نصبهم » التذكارى ؟ ! . . .

للشبيبة داخل جدران جامعتهم « نصب تذكارى » يقطر دماً . . . ويقول لهم كل صباح : « أنا التضحية فى سبيل مصر الخالدة » ! ... فيصدقونه ويظلون يؤمنون به حتى يتخرجوا ،

ويجدوا أنفسهم خارج الجدران . . . فإذا هم يرون الحياة وفى وسطها « نصب تذكارى آخر » أقامه الزعماء والعظماء !... أقاموه من الذهب الإبريز يقطر ترفاً وكسلاً ونعيما ... ويهمس لهم كل صباح ومساء : أنا الحياة فى سبيل شخصى ! ...

أيهما يصدقون ؟... أى النصبين يتبعون ، وإلى أى الصيحتين يسمعون ؟ . . . وليت « النصب » الخارجى تركهم مع ذلك حتى يخرجوا وأمهلهم ليعيشوا قليلا فى وهم حجرهم الداخلى . . . فقد دلف إليهم فى حرمهم واقتحم عليهم أسوارهم وهو يرن لهم بقطع الذهب ... ويعلمهم قبـــل الأوان ، كيف تباع المبادىء وتشترى فى سوق النضار . . . ولعله درس « توجيهى » إرثىَ من الضرورى أن يلقن داخل الجامعات حتى يخرج الشباب إلى الحياة فى شىء من الدُّربة على الواقع ، والدراية بالحقيقة فلا تقتلهم الصدمة إذا بقى لبعضهم شىء من ضمير . . .

لم يكن فى مقدور « مراد » أو « سميرة » أن يفكرا فى كل ذلك ، أو أن يعيراه اهتماماً . . . فإن القلب النقى فيهما كان قد خمات ، والضمير الفتىّ قد شاخ . . . كل ما دار فى خلدهما وهما

يتطلعان إلى الحجر التذكارى .. هو : أنه كان شاهداً على مهزلة حبهما ... ومهزلة هتافهم وإضرابهم وتحمسهم الفارغ ، وأنهما حرما نفسيهما متعة السينما شهوراً ، ليقتصدا من أجله ثمن طاقة زهور ! . . . ليتهما لم يفعلا . . . ولكن أنىّ لهما أن يعرفا تفاهة هذا الحجَر إلى جانب ذلك « النُّصب » الذهبي القائم فى الخارج شامخاً ، المشرف مزهواً على خضم الحياة المصرية ؟! . . .


36
sh